المدرسة المنصورية بالنحاسين(١)
دراسة معمارية آثارية

دكتور مهندس/حسام محمود مهدى*

بناء كأن النحل هندس شكله * ولاءت له كالشمع فيه الصخور
بناها سعيد في بقاع سعيدة * بها سعدت قبل المدارس نور
ومن حيثما وجهت وجهك نحوها * تلقتك منها نضرة وسرور
إذا قام يدعو الله فيها مؤذن * فما هو إلا للنجوم سمير

(شرف الدين البوصيري، في مدح المدرسة المنصورية، ذكره المقريزي في خططه، ج٢، ص٤٠٨)

هدف الدراسة والمنهجية المتّبعة

يعتبر الفهم الدقيق للمبنى الأثري بجميع جوانبه وأبعاده ضرورة أساسية للوصول لقرارات صائبة فيما يخص الحفاظ والترميم المعماري له. وتتناول هذه الدراسة مبنى المدرسة المنصورية بالنحاسين كنموذج. حيث تعتبر مجموعة قلاوون بصورة عامة، والمدرسة المنصورية بصورة خاصة، من أكثر مباني القاهرة التاريخية تفرّداً، وإثارة للدهشة والتساؤلات. وتهدف الدراسة إلى الإجابة على أكبر قدر ممكن من الأسئلة التي يطرحها المبنى الأثري لفهمه من الناحية المعمارية الأثرية، وحتى تكون قرارات الحفاظ والترميم المعماري له أقرب ما يمكن من الصواب.

وتعمدنا مراعاة عدم التكرار السردي لتاريخ قلاوون والوصف المعماري الأثري لمجموعته المعمارية، فالهدف من هذه الدراسة هو الوصول لقرارات صائبة فيما يخص الحفاظ على المدرسة، أما التوثيق التاريخي الأثري فقد وفاه حقه عدد من الباحثين وعلماء الآثار، ولا يسعنا إلا أن نبني على جهودهم ذاكرين الفضل لكل منهم في موضعه بالحواشي.

* مدرس الحفاظ المعماري والعمراني، بقسم ترميم الآثار، كلية الآداب بسوهاج، جامعة جنوب الوادي

وتعتمد الدراسة على الوثيقة التي حققها ونشرها د. محمد سيف النصر أبو الفتوح تحت عنوان "مدرسة السلطان قلاون بالنحاسين بالقاهرة، دراسة أثرية في ضوء وثيقة جديدة" والتي نشرها في مجلة كلية الآداب، جامعة صنعاء، ١٩٨٤، ص ٧٧-١٢٧، هذا بالإضافة لرسالة الدكتوراه لنفس الباحث والمقدمة لكلية الآثار جامعة القاهرة في ١٩٨٠ بعنوان "منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك". وقد أغنانا د. محمد حمزة إسماعيل الحداد بكتابه عن قلاوون ومنشآته[١] عن التقديم والتعريف والسرد والوصف، فقد جاء كتابه وافياً شاملاً لكل ما سبق نشره في هذا المجال، بما في ذلك دراسات د.محمد سيف المذكورة عاليه. كما اعتمدت الدراسة على كل ما هو متوفر من رسومات وصور فوتوغرافية قديمة خاصة بالمبنى لاستنباط المعلومات التي لم تذكرها الكتابات التاريخية.

أما المنهجية المتّبعة فتعتمد على القراءة والتحليل لكل ما توفر للباحث من الوثائق المتعلقة بالموضوع بأشكالها المختلفة، بالإضافة لاستقراء المبنى و تحليل محدّدات الموقع التي فرضت نفسها على المعمار والمنطق التصميمي الذي اتبعه المعمار لتحقيق المعادلة الصعبة بين متطلبات التصميم ومعطيات الموقع.

ويتبع هذا الجزء من الدراسة الجزء الثاني الذي يهدف إلى وضع استراتيجية وعرض البدائل المتاحة للحفاظ والترميم المعماري للمدرسة في محاولة لتحقيق الموازنة الدقيقة بين القيم التاريخية الأثرية من ناحية والقيم المعمارية الفنية للمبنى من ناحية أخرى.

١) الموقع

١. ١. تاريخ الموقع قبل إنشاء مجموعة قلاوون

بنيت مجموعة قلاوون في واحد من أهم المواقع بمدينة القاهرة منذ إنشائها. فقد كان بهذا الموقع في العصر الفاطمي القصر الغربي الصغير (أنظر شكل١)، حيث قال المقريزي[٢]:

> هذا المارستان بخط بين القصرين من القاهرة كان قاعة ست الملك ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد... وكان ذرع هذه الدار عشرة آلاف وستمائة ذراع وخلفت ست

الملـــك بهـــا ثمانية آلاف جارية وذخائر جليلة منها قطعة ياقوت أحمر زنتها عشرة مثاقيل...

وقـــد وصـــف الرحالة الفارسي ناصر خسرو علوي[٣] مجموعة قصور الخليفة والتي تشمل القصر الغربي الصغير بما يلي[٤]:

ويقـــع قصـــر الســـلطان في وسط القاهرة، وهو طلق من جميع الجهات، ولا يتصل به أي بناء، وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساوياً لمدينة ميافارنين، وكل ما حوله فضاء، ويحرسه كل ليلة ألف رجل، خمسمائة راجل وخمسمائة فارس.

ولعـــل بـــناء المارستان في نفس موقع القصر يفسر ما ذكره المقريزي من أنه[٥]:

اتفـــق أن بعض الفعلة كان يحفر في أساس المدرسة المنصورية فوجـــد حق اشنان من نحاس ووجد رفيقه قمقماً نحاساً مختوماً برصـــاص فأحضرا ذلك إلى الشجاعي فإذا الحق فصوص ماس ويـــاقوت وبلخش ولؤلؤ ناصع يدهش الأبصار ووجد في القمقم ذهباً كان نظير ما غرم على العمارة...

كما يفسر ذلك أيضاً ما ذكره د. محمد حمزة[٦]:

حفائـــر هيـــئة الآثـــار في مارس ١٩٧١ قد... كشفت في هذه الدورقاعـــة [دورقاعـــة المدرسة المنصورية] عن بقايا أساسات مباني أقدم ربما ترجع إلى بقايا القصر الغربي الفاطمي.
(أنظر شكل٢)

أمـــا تـــاريخ الموقـــع بعد انتهاء العصر الفاطمي فقد ذكره المقريزي بشكل موجز[٧]:

ثـــم عـــرف بـــدار الأمير فخر الدين جهاركس بعد زوال الدولة الفاطمية وبدار موسك ثم عرف بالملك المفضل قطب الدين أحمد بـــن الملك العادل أبي بكر بن أيوب وصار يقال لها الدار القطبية ولم تزل بيد ذريته إلى أن أخذها المنصور قلاوون.

٣.١ .الموقع وقت إنشاء المجموعة

من الواضح مما سبق أن الموقع لم يفقد قيمته منذ إنشاء القاهرة وحتى إصـــرار قلاوون على حيازته لبناء مجموعته المعمارية. فقد كانت كلفة ذلك الكثير من المال. كما جعل الكثيرين يشككون في شرعية الصلاة في المدرسة بعد أن بنيت على أرض أجبر أهلوها على تركها. حيث ذكر المقريزي[٨]:

> وقـــد تـــورع طائفـــة مـــن أهل الديانة عن الصلاة في المدرسة المنصـــورية والقـــبة وعابوا المارستان لكثرة عسف الناس في عمله وذلك أنه لما وقع اختيار السلطان على عمل الدار القطبية مارســـتانا نـــدب الطواشـــي حسام الدين بلالا المغيثي للكلام في شـــرائها فساس الأمر في ذلك حتى أنعمت مؤنسة خاتون ببيعها علـــى أن تعوض عنها بدار تلمها وعيالها فعوضت قصر الزمرد برحـــبة باب العيد مع مبلغ مال حمل إليها ووقع البيع على هذا فـــندب الســـلطان ســـنجر الشجاعي للعمارة فأخرج النساء من القطبـــية من غير مهلة... فتيا صورتها ما يقول أئمة الدين في موضـــع أخرج أهله منه كرهاً وعمر بمستحثين يعسفون الصناع وأخـــرب ما عمره الغير ونقل إليه ما كان فيه فعمر به هل تجوز الصلاة فيه أم لا فكتب جماعة من الفقها لا تجوز فيه الصلاة...

أمـــا ســـبب اختيار قلاوون لهذا الموقع لبناء مجموعته، رغم المشاكل التـــي أحاطـــت بهـــذا الاختـــيار، فهو الأهمية القصوى للموقع من الناحية السياسية. فبالإضافة إلى قربه من منشآت الصالح نجم الدين أيوب، والظاهر بيـــبرس (الرموز السياسية في عصره)، فإن الموقع يطل على أهم الفراغات العمرانية تأثيراً في الحياة العامة في مدينة القاهرة، بل وفي دولة المماليك. يقول د. محمد حسام الدين[٩]:

> وإذا نظرنا إلى الآثار الإسلامية الباقية في هذه الجهة من تقاطع شـــارع التمبكشية مع شارع المعز لدين الله الفاطمي – بداية من العصـــر الأيوبي وحتى عصر أسرة محمد علي – نجد أن معظم هـــذه المنشـــآت إما لسلاطين، وإما لكبار الأمراء في العصرين الأيوبـــي والمملوكـــي، أو لباشاوات مصر وأمرائهم في العصر

العثمانـــي،... نجد أن الكثافة الكبرى للآثار في هذه المنطقة من القاهـــرة لهم – ولا يضارعها إلا الدرب السلطاني شرق القاهرة – حيث قرافة المماليك الآن – مما يوضح لنا أهمية الطريق في الحـــياة العامـــة فـــي تلـــك العصور، والذي اتخذ طريقاً لموكب السلطان، ومواكب الأمراء وكبار رجال الدولة،...
(أنظر شكل ٣)

٣) التصميم العام لمجموعة قلاوون

تعـــتمد دراســـة التصـــميم العـــام للمجموعة على تحليل علاقة عناصر المجموعة ببعضها (أنظر شكل ٤)، والمقارنة بينها من ثلاثة زوايا:
أ)علاقة كل عنصر بشارع المعز والواجهة الرئيسية للمجموعة.
ب)مساحة كل عنصر وعلاقة ذلك بوظيفيته.
ت)مـــدى تأثـــر كل عنصر بمعطيات الموقع وبالعناصر الأخرى للمجموعة ومدى تأثيره فيها.

٣. ١. البيمارستان

بالـــرغم من أن المجموعة كاملة تعرف باسم "البيمارستان لأنه السبب في إنشائها" [١٠]، فإن عنصر البيمارستان هو أكثر عناصر المجموعة اختفاء وبعـــداً عـــن الـــناظر من شارع المعز لدين الله، حيث يقع مدخله في عمق الموقـــع ولا يظهـــر مـــنه أي جـــزء من الشارع. ويمكن تبرير ذلك بحاجة المرضـــى للهدوء، إلا أن هذا لا يعطي تفسيراً كاملاً وإلا فلم لم يبني المنشئ مبـــناه خـــارج المدينـــة أو في أحد ضواحيها الهادئة؟ ولعل أكثر التفسيرات إقـــناعاً هـــي اهتمام المنشئ بأن يرتبط البيمارستان كمؤسسة خيرية باسمه ليعضـــد من قوته السياسية في حياته ومكانته في التاريخ بعد مماته، فيلحق البيمارســـتان بمدفنه ومدرسته دون الحاجة للتضحية بأي جزء الواجهة ذات القـــيمة السياســـية الكبيرة. بل وقد نذهب إلى أن "إخفاء" البيمارستان خلف الضـــريح والمدرسة كان هدفاً سياسياً مدروساً وليس نتيجة عفوية لمعطيات الموقـــع، فلـــن يستطيع أي شخص استخدام البيمارستان دون المرور على الضـــريح والمدرســـة، فلنـــتأمل كيف وصف الرحالة الشهير ابن بطوطة[١١]

البيمارستان بأن ربطه بالضريح وهو الذي لم يذكر في رحلته سوى أضرحة آل البيت وأولياء الله الصالحين:

وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد فيه من المرافق والأدوية مالا يحصر، ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم.

فهل كان ابن بطوطة سيذكر "تربة الملك المنصور قلاوون" لو كان البيمارستان ظاهراً للرائي من شارع المعز؟ إلا أنه بالرغم من تواضع البيمارستان موقعاً بالنسبة للعناصر الأخرى للمجموعة، فإنه يحظى بأكبر مساحة. بل إن مساحة البيمارستان وحده أكبر من مساحة كل العناصر الأخرى لمجموعة قلاوون مجتمعة. وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على أنه – من النواحي الوظيفية (الطبية) والاجتماعية – كان البيمارستان أكثر عناصر المجموعة تأثيراً في الحياة اليومية العملية لمدينة القاهرة، وقد لاحظ ذلك الكثير من الرحالة الذين زاروا مصر بعد إنشاء المجموعة وحتى عصر محمد علي. فيقول الرحالة التجيبي[١٢]:

وبهذه القاعة العلية مارستان عظيم القدر، شهير الذكر، ينحصر عنه أعظم قصر من قصور الملوك معد للمرضى وذوي العاهات، شهير الذكر يخص المجاهد قلاوون الصالحي... وقف عليه أموالاً عظيمة ورتب فيه الأطباء والجراح ومن يعالج أمر المرضى.

بينما يذكر الرحالة البلوي[١٣]:

إنه يكمل في كل يوم من المرضى الداخلين إليه والخارجين منه أربعة آلاف نفس... ولا يخرج منه كل من يبرأ فيه حتى يعطى إحساناً إليه.

تأثر البيمارستان أكثر من الضريح والمدرسة ببقايا البناء السابق (الدار القطبية) حيث يقول المقريزي[١٤]:

فأبقى القاعة على حالها وعملها مارستانا وهي ذات ايوانات أربعة

ويبدو أن القاعة القطبية، ومن قبلها القصر الفاطمي الغربي، بنيت مع اتجاه شارع المعز لدين الله، وبالتالي فقد بني البيمارستان موازياً للشارع

وليس لاتجاه القبلة (كالقبة والمدرسة). ولعل هذا السبب بالإضافة لتعقيد وتشعب الناحية الوظيفية للبيمارستان جعلت تأثيره وتأثره بالعنصرين الآخرين بمجموعة قلاوون شبه معدومة. ويبدو الخط الفاصل بين البيمارستان والقبة امتداداً للفاصل بين البيمارستان والمدرسة، وكأن القبة والمدرسة يشكّلان مبنىً مستقلاً ويشكل البيمارستان مبنىً آخر. وبناء على دراسة الحداد[١٥]، فقد كان بناء البيمارستان في المرحلة الأولى لبناء المجموعة قبل بناء الضريح والمدرسة. وعليه فمن الطبيعي ألا يتأثر البيمارستان بالعنصرين الآخرين، ولكن الملفت للنظر هو أن تأثير البيمارستان على كل من العنصرين الآخرين لم يتعد وضع الحدود الخارجية لهما من الناحية الشمالية الشرقية. والأكثر من ذلك أن مدخل البيمارستان لم يؤثر على تصميم الدهليز الذي يؤدي إليه من المدخل الرئيسي للمجموعة، فجاء الإنكسار الكبير في الدهليز للدخول للبيمارستان للتوفيق بين مدخل البيمارستان الذي يحكمه عناصره الداخلية، وبين الدهليز الذي يحكمه توسطه القبة والمدرسة[١٦].

٣.٣.٣. الضريح (القبة)

وعلى العكس من البيمارستان، فإن الضريح يشكّل العنصر الأكثر ظهوراً بالمجموعة، حيث يحتوي على القبة التي قارنها الكثير من مؤرخي العمارة الإسلامية بقبة الصخرة لضخامتها ونظامها الإنشائي الفريد وزخارفها البديعة[١٧]، ويضاف إلى ذلك أنها – مع المئذنة – تهيمن على شارع المعز للقادم من تقاطع شارع التمبكشية، أي أنها تشكل محطة رئيسية في المواكب السلطانية والمواكب الرسمية الأخرى. ومما يؤكد هذه الفرضية أنه كان من المنطقي أن تكون المدرسة هي العنصر الذي يلتصق بالمئذنة – وليس الضريح – لارتباط وظيفتها بالمدرسة وليس بالضريح. فبنى المعمار المئذنة[١٨] في أهم موقع للناظر للمجموعة وجعلها في البؤرة البصرية للسالك في شارع المعز لدين الله، مما حدا بالعديد من الرحالة الأوروبيين رسمها كأحد المقومات للشخصية العمرانية لمدينة القاهرة، ولعل أشهر هذه الرسومات هي تلك التي رسمها الرحالة الأسكتلندي ديفيد روبرتس (أنظر

شكل ٥). ومما يؤكد على أهمية رؤية المئذنة من الجهة الشمالية أن النص التأسيس عليها، يبدأ من واجهتها الشمالية، وقد أكد المعمار على أهمية المئذنة ببنائها بضخامة وتزيينها بنوعية من الزخارف بشكل غير مسبوق في مآذن القاهرة[١٩]. وبدلاً من أن يبنى المدرسة ملتصقة بالمئذنة، استأثر بهذا الموقع البالغ الأهمية للضريح.

ومن مظاهر الإهتمام الشديد بوصل الضريح بالحياة العامة في شارع المعز الممر الطويل ذو التصميم المعقد الذي يوصل الشباك الشرقي بالحائط الشمالي للضريح، ليضاف إلى شبابيك القراءة الأربعة الموجودة بحائط القبلة بالمبنى (أنظر شكل ٦)، يقول المقريزي[٢٠]:

> وفي هذه القبة أيضاً قرّاء يتناوبون القراءة بالشبابيك المطلة على الشارع طول الليل والنهار...

أما أوضح الدلائل على أن الضريح هو العنصر الأهم في مجموعة قلاوون بدون منازع فهو ما ذكرة المقريزي[٢١] من أنه:

> يوضح ما يتحصل من مال أوقاف المارستان بهذه القبة تحت أيدي الخدّام...

فالهدف من بناء الضريح، بهذا الموقع وبهذا الحجم، والهدف من ارتباطه بالمباني ذات الصفة الدينية والعلمية والخيرية كان سياسياً بالدرجة الأولى، وهو أن يصبح رمزاً لحكم قلاوون وأسرته، وقاعة التشريفات التي يؤدي فيها رجال الدولة اليمين، بدلاً من المدرسة الصالحية، وقد تحقق هذا الهدف بنجاح واستمرت هذه الوظيفة للضريح حتى نهاية عهد أسرة قلاوون. فيقول المقريزي[٢٢]:

> ... وقصد الملوك بإقامة الخدام في هذه القاعة التي يتوصل إلى القبة منها إقامة ناموس الملك بعد الموت كما كان في مدة الحياة وهم اليوم لا يمكنون أحداً من الدخول إلى القبة إلا من كان من أهلها... وكانت العادة إذا أمر السلطان أحداً من أمراء مصر والشام فإنه ينزل من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش وتوقد له القاهرة فيمر إلى المدرسة الصالحية بين القصرين وعمل ذلك من عهد سلطنة المعز أيبك ومن بعده فنقل ذلك إلى

القبة المنصورية وصار الأمير يحلف عند القبر المذكور ويحضر تحليفه صاحب الحجاب وتمد أسمطة جليلة بهذه القبة ثم ينصرف الأمير ويجلس له في طول شارع القاهرة إلى القلعة أهل الأغاني لتزفه في نزوله وصعوده وكان هذا من جملة متنزهات القاهرة وقد بطل ذلك منذ انقرضت دولة بني قلاوون.

وبعيداً عن الجانب الرمزي/السياسي للضريح فقد كان أقل عناصر مجموعة قلاوون تأثيراً في الحياة اليومية العملية لمدينة القاهرة، وأحد دلائل ذلك صغر مساحة الضريح بالنسبة لكل من المدرسة والبيمارستان (على ضخامته بالنسبة لمباني الأضرحة بصورة عامة).

وقد أثر في التصميم المعماري للضريح، بالإضافة لحدود الموقع التي حددها الجار والبيمارستان من الشمال والشمال الغربي، ثلاثة اتجاهات (أنظر شكل ٧):

أ) اتجاه شارع المعز لدين الله في هذه المنطقة، حيث جاء الخط الخارجي للواجهة موازياً لهذا الإتجاه دون إهدار لأية مساحة (فلو بنى المعمار الضريح موازياً لاتجاه القبلة فقط، لتبقت مساحة مثلثة بين المبنى ونهر الشارع).

ب) اتجاه القبلة، والذي حدد الخط الداخلي للواجهة الرئيسية للضريح، فجاء سمك الجدار غير منتظم ليستوعب الفرق بين الاتجاهين، وقد حدد هذا الاتجاه الخط الداخلي لكل حوائط الضريح.

ت) الاتجاه التوفيقي للمدخل، وهو اتجاه شبه متوسط بين الاتجاهين السابقين (اتجاه الشارع واتجاه القبلة)، وجاء الدهليز عمودياً على هذا الاتجاه ومحدداً للخط الخارجي للحائط المشترك بين الضريح والدهليز. وعليه فإن سمك هذا الجدار غير منتظم ليستوعب الفرق بين اتجاه المدخل واتجاه القبلة.

٣.٣. المدرسة

أمـــا المدرسة فتلي الضريح في أهمية إظهارها للناظر واتصالها بالحياة العامـــة للمديـــنة، وذلـــك بالرغم من البروز الكبير في واجهتها عن واجهة الضـــريح. ويـــبدو أن هذا البروز جاء نتيجة لمعطيات الموقع السابق للبناء (الـــدار القطبـــية)، وقد يكون أيضاً للتأكيد على المدخل الرئيسي للمجموعة. فلـــو كـــان هـــذا البروز لإضفاء أهمية على واجهة المدرسة لكان بالمعالجة المعماريـــة أو الـــزخارف ما يشير إلى ذلك. ولما كان يوضع بهذه الواجهة حوض لشرب الدواب[٢٣]. فقد كانت وظيفة المدرسة إسكان الطلبة والمدرسين وتوفير مكان لصلاتهم[٢٤]، أما كل الوظائف الأخرى فقد كانت تتم بنفس القدر إن لم يكن بقدر أكبر في الضريح، حيث يقول المقريزي[٢٥]:

... وقـــرر فـــي القبة خمسين مقرئاً يتناوبون قراءة القرآن ليلاً ونهـــاراً ورتـــب إمامـــاً راتباً وجعل بها رئيساً للمؤذنين عندما يؤذنـــون فوق منارة ليس في إقليم مصر أجل منها ورتب بهذه القـــبة درســـاً لتفسير القرآن فيه مدرس ومعيدان وثلاثون طالباً ودرس حديـــث نبوي وجعل بها خزانة كتب وستة خدام طواشية لا يزالون بها...

وقد ذهب العديد من المستشرقين إلى أن الغرض من التوسع في إقامة المدارس في العصر المملوكي، وكذلك العناصر المعمارية المميزة لطراز تلك المبانـــي، كـــان لأسباب تتعلق بالطموحات الشخصية ذات الطبيعة السياسية والمالـــية للمنشـــئ أكثر منها لأسباب دينية أو علمية[٢٦]. ومع التحفظ تجاه نوايـــا المستشرقين في اتجاهاتهم البحثية فيما يخص تاريخ وآثار المسلمين، فـــلا يمكننا تجاهل كل المؤشرات سواء الناتجة من التحليل المعماري للمبنى أو دراسة الوثائق والمراجع التاريخية، والتي تخلص كلها إلى نفس النتائج. ويكفيـــنا فـــي هـــذا المضمار الاستشهاد بتعليق المقريزي على التحرج من الصـــلاة فـــي المدرسة المنصورية بسبب بنائها على أرض مغتصبة وبمواد ومصنعية مغتصبة، مما يعتبر حرام شرعاً[٢٧]:

... وأنت إن أمعنت النظر وعرفت ما جرى تبين لك أن ما القوم إلا ســـارق من سارق وغاصب من غاصب وإن كان التحرج من

الصلاة لأجل عسف العمال وتسخير الرجال فشيء آخر بالله عرّفني فإني غير عارف من منهم لم يسلك في أعماله هذا السبيل غير أن بعضهم أظلم من بعض...

ولعل في النص التأسيسي المنقوش على عتب الباب الرئيسي للمجموعة توضيح للتدرج في أهمية عناصرها بالنسبة للمنشئ. فبالرغم من أن التسلسل التاريخي لبناء المجموعة كان البيمارستنا ثم القبة فالمدرسة، فقد رتبهم النص التأسيسي بطريقة مختلفة[٢٨]:

أمر بإنشاء هذه القبة الشريفة والمدرسة المباركة والبيمارستان المبارك مولانا الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي وكان ابتداء عمارة ذلك في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة والفراغ منه في جمادى الأول سنة أربع وثمانين وستمائة.

ومثل الضريح، أثّرت الاتجاهات الثلاثة التالية على التصميم المعماري للمدرسة (أنظر شكل٨):

أ)اتجاه شارع المعز لدين الله في هذه المنطقة، حيث جاء الخط الخارجي للواجهة موازياً لهذا الاتجاه دون إهدار لأية مساحة.

ب)اتجاه القبلة، والذي حدد الخط الداخلي للواجهة الرئيسية للمدرسة، وجاء سمك الجدار غير منتظم ليستوعب الفرق بين الاتجاهين، وقد حدد الاتجاه الخط الداخلي لكل الحوائط الرئيسية بالمدرسة.

ت)الاتجاه التوفيقي للمدخل، وهو اتجاه شبه متوسط بين الاتجاهين السابقين (اتجاه الشارع، واتجاه القبلة)، وجاء الدهليز عمودياً على هذا الاتجاه ومحدداً للخط الخارجي للحائط المشترك بين المدرسة والدهليز. وقد تم استيعاب الفرق بين اتجاه المدخل (والدهليز) واتجاه القبلة بالاختلاف في أطوال الغرف والصفة بالجانب الشمالي الشرقي من المدرسة (أصغر طول للغرفة القريبة من الدركاه ونهاية

الدهليز وأكبر طول للغرفة القريبة من نهاية الدهليز جهة الشارع والمدخل الرئيسي).

وبالإضافة لكل المؤثرات السابقة، هناك تأثير الضريح على التصميم المعماري للمدرسة والذي يستوجب الدراسة المتأنية.

٣) تأثير مبنى الضريح على التصميم المعماري للمدرسة

٣. ١. واجهة المدرسة على الدهليز

جاء التماثل في الواجهتين الطوليتين للدهليز من التوفيق بين واجهتي كل من الضريح والمدرسة على هذا الدهليز (شكل٩). وبينما نرى الدخلات التي تقسم واجهة الضيح تعبر تعبيراً مباشراً عن التصميم الداخلي لفراغات الضريح، لا توجد علاقة واضحة بين الدخلات بواجهة المدرسة والتصميم الداخلي لفراغاتها[٢٩]، إلا باستثنائين. الاستثناء الأول هو شباك الصفة الشمالية الشرقية والذي يرتبط بتصميم الصفة[٣٠]. والاستثناء الثاني هو المدخل الرئيسي والذي يرتبط بدركاه مدخل المدرسة. إلا أننا قارنا بين مدخلي كل من المدرسة والضريح، سنجد أن موقع مدخل الضريح يعتبر ضرورة تصميمية، حيث لم يكن من الممكن لكي يؤدي المدخل إلى المساحة التي تتقدم قبة الضريح أن يكون في موقع آخر بالواجهة دون تغيير أساسي في التصميم المعماري للضريح ككل. وذلك عكس مدخل المدرسة الذي كان من الممكن أن يكون في أي موقع آخر على جانبي الصفة الشمالية الشرقية، ويؤدي إلى الصحن من خلال مدخل منكسر (دركاه) دون أن يؤثر ذلك في التصميم المعماري الكلي للمدرسة. وعليه نخلص إلى أنه للوصول للتجانس في فراغات الدهليز فإن تصميم الجانب الشمالي الشرقي للمدرسة تأثير بتصميم الضريح وليس العكس. ويؤكد هذه النتيجة ما وصل إليه الحداد من أن الضريح بني قبل المدرسة[٣١] (فمن الطبيعي أن يؤثر السابق في اللاحق).

٣. ٢. واجهة المدرسة على شارع المعز

احترم تصميم واجهة المدرسة على شارع المعز الفكر التصميمي المتّبع في تصميم واجهة الضريح على الشارع، ونرى ذلك في عدة مظاهر:

- نفس المعالجات لتنسيق الفتحات في دخلات رأسية غير عميقة معقودة بعقود مدببة، وكذلك التنسيق الرأسي لكل مجموعة فتحات بشباك ذا

مصـــبّعات وعتب أفقي تعلوه قمرية مستطيلة يغطيها حجاب بزخارف جصـــية هندســـية يعلوها قندلية بسيطة يغطيها أيضاً حجاب بزخارف جصـــية، ولعـــل التزام المعمار بتنفيذ هذه المنظومة الرأسية للفتحات بالمدرســـة أثّر على تصميم باقي أجزاء المدرسة فجاء تصميم واجها الإيوانين القبلي والبحري على صحن المدرسة على نفس المنوال حيث رتّب الفتحات (ما بين شبابيك وقمريات) في صفوف رأسية يتكون كل صف من ثلاثة فتحات. وجدير بالملاحظة أنه بالرغم من التزام تصميم واجهة المدرسة الخارجية بنفس المفردات ونفس الإيقاع المستخدمين فـــي واجهة الضريح، إلا أن الالتزام لم يكن كاملاً وإنما جاءت واجهة المدرســـة بهـــا بعـــض الاخـــتلاف الذي يثري تكوين الواجهة الكلية للمجموعة، ويعبّر عن خصوصية إيوان القبلة بالمدرسة.

- استمرار الطراز الكتابي على واجهة الضريح والمدخل ثم المدرسة.
- استمرار الشرافات المسننة ذات الزخارف النباتية البارزة على واجهة الضريح والمدخل والمدرسة.
- معالجـــة كل واجهات المجموعة على شارع المعز، بما في ذلك الحطة الأولـــى للمأذنة بأسلوب الحجر المشهّر[٣٢] (المربعات الشطرنجية)، و التـــي بالـــرغم مـــن اختفائها اليوم، كان قد سجّلها الكثير من الرحّالة بالصور الفوتوغرافية (أنظر شكل١٠)، وبالرسومات (أنظر شكل١١).
- أمـــا أهـــم تأثيرات واجهة الضريح على تصميم واجهة المدرسة فهو التزام ارتفاع واجهة المدرسة بنفس ارتفاع واجهة الضريح. فنرى أن ارتفـــاع الواجهـــة وموقـــع الشرافات يوافق ارتفاع السقف المستوي للضـــريح (أنظـــر شـــكل١٢)، بينما لا يوافق ارتفاع الواجهة أي من أسقف إيوان القبلة سواء الرواق الأوسط أو الرواقين الجانبيين (أنظر شـــكل١٣). وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على أحد احتمالين، إما أن ارتفـــاع واجهـــة المدرسة جاء ليتناسق مع واجهة الضريح بغض النظر عن الارتفاع الفعلي لإيوان القبلة بالمدرسة، وفي ذلك دلالة على التأثـــير الكبـــير لتصـــميم الضريح على تصميم المدرسة. أما التفسير الآخـــر لهـــذه الظاهـــرة فهو أن الارتفاع الحالي لأسقف إيوان القبلة

بالمدرسة ليس الارتفاع الأصلي، وأن الارتفاع الأصلي كان له علاقة بارتفاع الواجهة، ولو صحّ هذا الاحتمال لساعدنا ذلك في فهم اللغز المحيّر الخاص بالشكل الأصلي لسقف إيوان القبلة (والذي سنناقشه في مرحلة لاحقة من هذه الدراسة)، وعلى كلّ فلو صحّ الاحتمال الثاني لكان دليلاً أقوى على تأثير الضريح على تصميم المدرسة، لأن ذلك سيعني تأثير ارتفاع واجهة الضريح ليس فقط على واجهة المدرسة وانما على ارتفاعات سقف إيوان القبلة أيضاً.

٤) التصميم العام للمدرسة

٤. ١. المحددات المسبقة للموقع

واجه المعمار محددات مسبقة فرضها عليه الموقع، وأثّرت في تصميمه للمدرسة (أنظر شكل١٤)، وهذه المحدّدات هي:

أ) يشكل الدهليز الحد الشمالي الشرقي لجزء كبير من المدرسة، ويشكل شارع المعز الحد للجزء المتبقي.

ب) يشكل موقع المدخل بواجهة المدرسة على الدهليز أحد الثوابت التصميمية التي بنى عليها المعمار تصميم المدرسة (وذلك لكي يكون مقابلاً لمدخل الضريح، والذي لا يمكن تغيير مكانه بسب المعطيات التصميمية للضريح).

ت) يحدد شباك الصفة الشمالية الشرقية منتصف الصحن (باعتبار أن الشباك في منتصف الصفة وأن الصفة تكون في منتصف الضلع الطولي للصحن).

ث) تحدد التصميم بالحد الجنوبي الغربي للموقع (كان به القيسارية المستجدة التي أنشأها السلطان قلاوون والتي كان يجاورها موقع إعداد الجص لعمائر السلطان قلاوون[٣٣]، "وقد زالت القيسارية وأقيم في موقعها الطريق الحديث إلى مستشفى قلاوون للعيون حالياً والذي أنشئ عام ١٩١٠")[٣٤].

ج) حدد تصميم القيسارية وعلاقتها بالمدرسة عدة معطيات فيما يخص تصميم الجدار الجنوبي الغربي للمدرسة:

- التحام واجهة القيسارية بواجهة المدرسة على شارع المعز لدين الله، مما جعل واجهة المدرسة تبدو مبتورة بشكل غير طبيعي بعد اندثار القيسارية، وقد يبرر ذلك أيضاً بروز الجزء السفلي بواجهة المدرسة عن الجزء العلوي (أنظر شكل ١٥).
- التحام مبنى القيسارية بمبنى المدرسة في مواقع معينة وانفصالهما في مواقع أخرى كما يدل على ذلك حالة جدار المدرسة من الخارج (أنظر شكل ١٦).
- وجود صحن مكشوف أو مغطى بالقيسارية بالمواقع التي يفتح شبابيك وباب من المدرسة على القيسارية (أنظر المسقط الأفقي شكل ١٤).

ح) تحدد التصميم بالحد الشمالي الغربي للموقع (كان به ما أسمته الوثيقة "الحمام المستجد والذي كان يقع بين ميضأة المدرسة والبيمارستان، وقد زال هذا الحمام وأدمج موقعه في البيمارستان")[٣٥].

خ) الحد الجنوبي الشرقي (القبلي) للمدرسة هو شارع المعز لدين الله (النحاسين).

د) شكّل ارتفاع واجهة إيوان القبلة على شارع المعز أحد الثوابت التي التزم بها المعمار، توافقاً مع ارتفاع واجهة الضريح.

ذ) شكّل ترتيب الفتحات بواجهة إيوان القبلة في صفوف رأسية يضم كل صف ثلاثة فتحات أحد المحددات المسبّقة التي التزم بها المعمار لكي تجيء واجهة المدرسة متناسقة مع واجهة الضريح.

٣.٤. التصميم في ضوء المحددات المسبقة للموقع

واجه المعمار المحددات المسبقة التي فرضها عليه الموقع بمحاولة تحقيق المعادلة الصعبة للتوفيق بين معطيات الموقع ومتطلبات التصميم، مما أضفى على التصميم صفات مميّزة، نلخصها فيما يلي:

أ) أدى صغر البعد بين الحد الشمالي الشرقي (الدهليز، وشارع المعز) والحد الغربي (القيسارية المستجدة) إلى اكتفاء المعمار بصفتين جانبيتين صغيرتين بالمقارنة لإيوان القبلة والإيوان المقابل له.[٣٦] فأي

زيادة في مساحة الصفتين كان سيكون على حساب مساحة الصحن (الدورقاعة كما أسمته الوثيقة).

ب)كان من الطبيعي أن تكون الصفتان متماثلتان في المساحة[٣٧] وأن تشكل واجهتيهما على الصحن، بالإضافة إلى صفين من الخلاوي (غرف الطلبة) الحدّين الجانبيين للصحن.

ت)جاءت الفراغات في الصفين على جانبي الصحن (كل صف يضم مجموعة من الخلاوي تتوسطها صفة جانبية) على هيئة شبه منحرف لتستوعب الاختلاف بين كل من اتجاهي القبلة (الذي يحكم تصميم الفراغ الداخلي للمدرسة) والدهليز (الذي يحكم تصميم واجهة المدرسة على الدهليز).

ث)تحدد الإيوان المقابل لإيوان القبلة (الإيوان البحري) بعرض الصحن بعد خصم عرض الممر المؤدي إلى الدركاه، ومثل هذا العرض على الجانب الآخر للممر المؤدي إلى قاعة سكن مدرسي المدرسة.

ج) جاءت واجهة إيوان القبلة مماثلة لواجهة الإيوان البحري، كما تقضي أصول التصميم في العصر المملوكي، إلا أن المتطلبات الوظيفية لإيوان القبلة تقتضي أن تكون مساحته أكبر من الإيوان البحري، مما جعل المعمار يلجأ إلى حل مبتكر، حيث أنه من ناحية لا يستطيع توسعة الإيوان البحري (للأسباب المذكورة عاليه في النقاط السابقة)، ومن ناحية أخرى لا يريد كسر التوازن الذي يكسبه التماثل في واجهات الصحن. وكان الحل في تصميم إيوان القبلة مكوناً من ثلاثة أقسام، القسم الأوسط (والأكبر) تماثل واجهته الإيوان البحري، والقسمين الجانبيين الصغيرين يماثل كل منهما مدخل الممر (المؤدي إلى الدركاه في ناحية، وإلى سكن المدرسين في الناحية الأخرى) وكذلك تماثل الفتحات العلوية للقسمين الجانبيين لإيوان القبلة فتحات المنافع في الأدوار العلوية على جانبي الإيوان البحري، كما جاء ترتيب هذه الفتحات متماثلاً مع الفتحات المقابلة لها والمطلة على شارع المعز والتي حدد الترتيب الرأسي لها النظام المتّبع في واجهة الضريح ومجموعة قلاوون ككل.

٤.٣. خصوصية تصميم إيوان القبلة

لا بد من وقفة لشرح الاستنتاج عاليه (الخاص بتصميم إيوان القبلة) لسببين:

أولاً: لجدّة هذا الاستنتاج، حيث لم تتوصل إليه أي من الدراسات الكثيرة التي أجريت على المدرسة بصورة عامة وعن إيوان القبلة بصورة خاصة.

ثانياً: لأهمية هذا الاستنتاج في فهم المنطق التصميمي لإيوان القبلة، بما في ذلك نظام التسقيف به، والذي يشكّل أحد أشهر علامات الاستفهام في مجال العمارة المملوكية بالقاهرة.

بالرغم من اعتماد هذه الدراسة بشكل كبير على دراسة العالم الراحل د. محمد سيف النصر أبو الفتوح، رحمه الله، وعلى نشره للوثيقة (رقم ٦٠٧ جديد)، فإننا نختلف معه في جزئية تصوره لما كان عليه الإيوان البحري (انظر شكل ١٧)، حيث جاء في نص الوثيقة بخصوص هذا الإيوان ما يلي:

٦٢- ... والإيوان البحري معقود القوصرة بالطوب الآجر والجبس وهو مسقف نقي شامي

٦٣- منقوش مذهب معرق مدهون بالأصباغ المختلفة وتحته جفت مدهون كتابة كوفي باللازورد والأصباغ

٦٤- المختلفة وبصدوره باذاهنج مرخم الجدر بالرخام الأبيض والأحمر والأخضر والكرندازات

٦٥- الملونة يعلوا ذلك طاقات زجاج ملونة بينهما ثلثة عمد رخاماً يعلو الطاقات قمريات زجاج

٦٦- ملونة وعلى يمنة من صار في الإيوان المذكور ويسرته صفتان متقابلتان احدهما

٦٧- بها الشباك المطل على الدهليز المذكور بأعلى كل منهما طاقات زجاج ملون تعلوها قمرية

٦٨- محمولة على ثلثة عمد رخاماً وبالإيوان المذكور ثمانية عمد رخاماً مكملة القواعد اثنان بواجهته واثنان

٦٩- بواجهة الباذاهنج واثنان بالصفة التي بها الشباك المذكور واثنان بالصفة المقابلة لها..

ونرى من نص الوثيقة عاليه أنه لم يذكر ما يفيد وجود كتف لمدخل الإيوان البحري، ولا ما يفيد بأن ترتيب العمودين بواجهة الإيوان يختلف عن ترتيب العمودين بواجهة إيوان القبلة، ولا أن حجم هذين العمودين أكبر من العمودين بواجهة إيوان القبلة، وإنما جاء تصور سيف النصر لهذا الإيوان اجتهاداً يحتمل الصواب والخطأ، ولعله جانبه الصواب فيه. فليس من المعقول أن يكون المعمار قاب قوسين أو أدنى من الوصول للتماثل في واجهتي الإيوانين، وبالتالي الوصول إلى أحد أهم الأهداف التصميمية المملوكية، ثم يكسر هذا التماثل بدون أي سبب واضح. وعليه فلو سلّمنا بتماثل واجهتي الإيوانين البحري والقبلي على الصحن (أنظر شكل ١٩) فسنصل إلى إجابة مقنعة للأسئلة الثلاثة الشهيرة:

١) لماذا قسّم المعمار سقف إيوان القبلة إلى ثلاثة بلاطات، بلاطة وسطى وبلاطتان جانبيتان؟

٢) كيف كان شكل السقف لهذه البلاطات الثلاثة؟

٣) ما هي وظيفة الأعمدة الصغيرة المرتكزة على حرمدانات (كوابيل) أعلى الدعامات على جانبي البلاطة الوسطى للسقف؟

شغلت هذه الأسئلة أعضاء لجنة حفظ الآثار العربية، أثناء محاولاتهم ترميم المدرسة عام ١٩٢٢، خصوصاً و أنهم وجدوا إيوان القبلة بدون سقف (أنظر شكل ١٨). فقدم ماكس هرتس باشا تصوره الشهير، والذي رسمه البلاطة الوسطى لسقف إيوان القبلة (أنظر شكل ٢٠)، والذي بناه على فرضية أن السقف كان مقبياً، وأن الأعمدة والكوابيل العلوية كانت تحمل عقود خشبية لدعم القبو الكبير. وتراوحت الإجابة على السؤال الأول، سواء من قبل أعضاء لجنة حفظ الآثار العربية، أو علماء الآثار وتاريخ العمارة، بين التأثر بنموذج البازيليكا والتأثر بالعمارة الصليبية أو عمارة الكنائس القبطية (كالكنيسة المعلقة).

ونحن اليوم نعرف ما لم يعرفه أعضاء لجنة حفظ الآثار العربية، بفضل الوثيقة التي نشرها سيف النصر، وهي إجابة السؤالين الثاني والثالث:

١٧- ... فأما الإيوان القبلي فإنه معقود القوصرة بالطوب الآجر

١٨- مسقف مربع نقي بسط بفساقي وقنانات وقباب مذهبة مغرقة

١٩- باللازورد والأصباغ المختلفة وتحته نادر مقرنص ثلث كسرات تحته

٢٠- كتابة بيضاء في أرض لازورد وبكل من جانبي الإيوان المذكور رواق من

٢١- الشرقي منه ومن الجانب الغربي معقود بالطوب الآجر والجبس مصلب

٢٢- وهما والسقف النقي محمولون على ست عمد جافية صوان أحمر بقواعد علوية

٢٣- وسفليه رخام أبيض والقواعد المذكورة مغرقة بالذهب يعلوا كل عمود منها

٢٤- جفت مذهب وأركان بنيان مضعفة ويعلوا الأركان المذكورة جفت أيضاً

٢٥- وبواجهة كل ركن منها من علوه عمودا رخاما علوه وتر خشب واصل إلى ما

٢٦- يحازيه من الجهة المقابلة له مدهون..

فنعرف من السطرين الثامن عشر والتاسع عشر من الوثيقة أن البلاطة الوسطى كانت مسقفة بسقف خشبي مستوي، ونعرف من السطر الحادي والعشرين أن البلاطتين الجانبيتين كانتا مسقفتين بقبوات متقاطعة (مصلب)، ومازالت إلى اليوم هناك آثار لبدايات القبوات المتقاطعة ببياض حوائط الرواقين الجانبيين (أنظر شكل٢١). أما السطرين الخامس والعشرين والسادس والعشرين فيحددان أن الأعمدة الرخامية العلوية كان علوها أوتاراً خشبية (شدّادات) تربط بين جانبي البلاطة الوسطى. ولا تذكر الوثيقة في أي موقع منها الأوتار الخشبية الموجودة اليوم أعلى تيجان الأعمدة (أنظر شكل

٢٢)، وأغلب الظن أن هذه الأوتار تعود إلى ترميمات لجنة حفظ الآثار العربية في أوائل العشرينيات. وتؤكد هذه المعلومات رسمة لأحد الرحالة الأوروبيين لإيوان القبلة في القرن الماضي (أنظر شكل ٢٣)، والتي وجدناها بطريق الصدفة تحت مسمى خاطئ في كتاب عن الجمالية الإسلامية.[٣٨] ففي هذه الرسمة نجد أوتاراً علوية ولا نجد أوتاراً سفلية، ونجد سقفاً خشبياً مستوياً، كما نجد واجهة مختلفة لإيوان القبلة على الصحن (أنظر الواجهة الحالية على الصحن شكل رقم ٢٤)، ونحن نعرف أن الجزء العلوي من الواجهة الحالية هو من أعمال لجنة حفظ الآثار العربية (أنظر حالة الواجهة التي كشفت عنها اللجنة شكل١٩)، ويؤيد وصف الوثيقة شكل الإيوان الذي رسمه الرحالة.

٢٧- ... وبواجهة

٢٨- الإيوان المذكور عمودان رخاماً جوامعية مكملة القواعد وقواعدهما الفوقانية

٢٩- مغرقة بالذهب ويعلوا العمودين المذكورين مثال عقد إيوان لطيف

٣٠- وقمريات ويعلوا ذلك كله قمريات نهايتها بطن قوصرة الإيوان المذكور..

بقى أن نبحث عن إجابة السؤال الأول:

لماذا لجأ المعمار لهذا التصميم الفريد لإيوان القبلة؟ والذي لا نجد له شبيهاً قبله أو بعده.

تكمن الإجابة، كما ذكرنا سابقاً، في محاولة تحقيق التماثل بين واجهتي الإيوانين البحري والقبلي على الصحن. وكما ذكرنا سابقاً، فإن عرض الإيوان البحري محكوم بالعرض المحدود لموقع المدرسة، بعد استقطاع الصقتين على جانبي الصحن والبابين على جانبي الإيوان البحري. أما إيوان القبلة فإن الاهتمام بتحقيق التماثل دفع المعمار لأن يركب أبواباً بضلف تغلق على الرواقين الجانبيين بدون أي هدف وظيفي، حيث تذكر الوثيقة:

٢٦- ... وبكل (من) الرواقين المذكورين باب معقود حنية

٢٧- يغلق عليه زوج أبواب مدهونة ...

فما هو سبب إغلاق الرواقين بأبواب محكمة، إذا كانت الفتحة الرئيسية للإيوان من الرواق الأوسط لا أبواب لها؟ إلا إذا كان سبب ذلك هو تحقيق التماثل بين البابين على جانبي الإيوان البحري، مما يوضح مدى اهتمام المعمار بتحقيق التماثل ولو على حساب الناحية الاقتصادية (حيث تحمّل تكلفة بابين من الخشب ذو النوعية الجيدة بلا سبب وظيفي). ونرى هذا الاهتمام بتحقيق التماثل في الفتحات والدخلات المختلفة بإيوان القبلة، حيث أن هناك تماثلاً في عدد وشكل الفتحات الجانبية في الجدارين المتقابلين لإيوان القبلة. فنجد أما الشباكين المطلين على شارع المعز لدين الله شباكين مطلين على القيسارية المستجدة، وأمام الصفتين بالجدار الشرقي للإيوان صفتين بالجدار الغربي (أنظر شكل ١٨).

كما أن هناك خاصية أخرى لإيوان القبلة توضح مدى اهتمام المعمار بتحقيق التماثل، ولو كان ذلك على حساب الوظيفية أو الاقتصاد، وتلك هي تصميم الجدار الخارجي للرواق الجانبي الشرقي لإيوان القبلة (الجزء المسوّد بمسقط المدرسة في شكل ٢٥)، فمن الناحية الوظيفية، كان من الممكن عمل إيوان القبلة أكبر بدلاً من السمك الضخم لهذا الجدار. وكان أمام المعمار أحد حلّين لتكبير مساحة إيوان القبلة:

١)تكبير الرواق الجانبي الشرقي، إلا أن المشكلة كانت ستكمن في عدم تماثل رواقي إيوان القبلة.

٢)تكبير الرواقين الجانبيين بقدر متساوي، إلا أن المشكلة هنا كانت ستكمن في عدم تماثل واجهة إيوان القبلة والإيوان البحري على الصحن.

نخلص مما سبق إلى أنه، من وجهة نظر المنطق التصميمي المعماري، فإن السبب في هذا التصميم المتفرّد لإيوان القبلة هو تحقيق التماثل لواجهتي الإيوانين القبلي والبحري على الصحن. وإن هذا النزوع لتحقيق التماثل في التصميم قد حكم أيضاً الجوانب المختلفة الأخرى لتصميم إيوان القبلة.

أما فيما يتعلق بارتفاعات أسقف إيوان القبلة، فإن عدم وجود علاقة واضحة بين هذا الأسقف وارتفاع واجهة الإيوان على شارع المعز يجعلنا

نتساءل عن مدى أصالة ارتفاع الأسقف الحالية. خاصة وأن الصور القديمة تثبت أن لجنة حفظ الآثار العربية قد وجدت الإيوان بدون سقف، كما أنها وجدت الحوائط غير مكتملة الارتفاع وأكملتها لما ظنّه أعضاء اللجنة الارتفاع الأصلي لسقف الإيوان (أنظر شكل ١٩). وهناك صورة فوتوغرافية توضّح علاقة حائط القبلة بالشرافات المسننة قبل أن تنشئ اللجنة السقف الحالي (أنظر شكل٢٦)، ولعل وجود زخرفة جصية تنمّ عن بداية دائرة قد تكون قمرية مستديرة أوحى لأعضاء اللجنة بالارتفاع بسقف الرواق حتى يسمح بإستدارة هذه القمرية بالإضافة إلى سُمك عقد كبير بعرض الرواق (أنظر شكل٢٧). وقد يكون السبب في ذلك انتشار الفرضية بأن سبب تصميم إيوان القبلة على ثلاثة أروقة هو لإدخال الضوء للرواق الأوسط من خلال شبابيك علوية تقع في المنسوب بين الرواق الأوسط والرواقين الجانبيين، وهذا ما نقذه فعلاً مشروع ترميم السقف الذي نفذته اللجنة، ولكن هناك مشكلتان تواجهان هذه الفرضية. المشكلة الأولى، أنه لو كان المنطق التصميمي للمعمار ينحو هذا النحو لما ترك الدهليز الرئيسي والذي يؤدي من المدخل إلى العناصر المختلفة للمجموعة مظلماً تماماً، ولا ننسى أن الرواق الأوسط لإيوان القبلة مضاء بعدد كبير من الفتحات في الجدارين العموديين (القبلي والبحري). أما المشكلة الأخرى التي تواجه هذه الفرضية فهي أنه لا يوجد أي مؤشر في الوثيقة ولا في حالة المبنى عندما تدخلت فيه اللجنة مما يوحي بأن سقف رواق القبلة قد منسوبه أعلى الشرافات بواجهة المجموعة على شارع المعز، و لا أن هناك فرقاً كبيراً بين منسوب سقف الرواق الأوسط عن سقفي الرواقين الجانبيين. ولا بد هنا من وقفة لمناقشة دقة رسمة الرحالة دوزا لإيوان القبلة (شكل ٢٣):

- رسم دوزا عموداً زائداً لصف الأعمدة الشرقية بالرواق الأوسط لإيوان القبلة، ثم لم يكمله.
- الشبابيك العلوية على جانبي الرواق الأوسط طولية رغم أنها من واقع الوثيقة والوضع الذي وجدته اللجنة دائرية (أنظر شكل ١٨).
- السقف مقسم إلي تربيعات بالرغم من أن الوثيقة تذكر أنه "بفساقي قنانات وقباب مذهبة".

وقد يكون السبب في هذه الاختلافات بين الرسمة والوثيقة ناتجة عن عدم دقة الرسام، أو أن الحالة التي كان عليها السقف في وقت رسمه لم تكن الحالة الأصلية التي وصفتها الوثيقة (يستثنى من هذا الاحتمال الملاحظة الأولى الخاصة بالعمود الزائد.

لعل أهم سبب أدى بماكس هرتس إلى أن يتبنّى تصوره للرواق مسقوفاً بقبو هو أن الحائطين الجانبيين للرواق لم يكونا مرتفعين بينما كان يبدو أن الزخرفة الجصية في صدر الإيوان لها امتداد رأسي كبير، وهذا هو أيضاً ما بنى عليه المهندس الإيطالي روسّي تصوره لسقف جمالوني مما هو محفوظ في أرشيف المجلس الأعلى للآثار (أنظر شكل ٢٨). وصحيح أن الوثيقة تتحدث عن قمرية أعلى صدر إيوان القبلة:

٥١- ويعلوا ذلك الطاقات زجاج ملونة منها خمس عمد رخاما ويعلوها قمرية زجاج ملونة.

ولكن لماذا لا تكون تلك القمرية هي القمرية المستديرة التي تكوّن مع قمريتين مستطيلتين القندلية الوسطى بصدر الإيوان، وليست القمرية الكبيرة المستجدة أعلى القندلية؟ وخصوصاً وأن الوثيقة تصف الطاقات الزجاجية التي بداير الإيوان، ومنها الطاقات في الحوائط الخارجية للإيوان وكذلك تلك التي على جانبي الرواق الأوسط فوق العقود المؤدية من الرواق الأوسط للأروقة الجانبية، بأنها تحت السقف، مما يشير بأن المسافة بين هذه الطاقات والسقف مسافة صغيرة ليس بها أية فتحات أخرى، كما أن الوصف الجمعي لهذه الطاقات يشير إلى تشابهها في الشكل والحجم والموقع:

٣٠- ... ويعلوا قواصر

٣١- الرواقات المذكورة طاقات زجاج ملونة تحت السقف المذكور بدايره وبصدر

٣٢- الإيوان المذكور بأعلاه كندجة وطاقات زجام ملونة

ونخلص من هذا التحليل إلى أن سقف الرواق الأوسط لإيوان القبلة كان منسوبة أقل بكثير من المنسوب الحالي (أنظر شكل ٢٩)، وأن الفرق في المنسوب بين هذا السقف وسقفي الرواقين الجانبيين كان أصغر من أن يسمح بإضاءة جانبية من فرق المنسوب. ومن الممكن أن سقفي الرواقين

الجانبيين عندما كانا مبنيين من قبوات متقاطعة في نفس منسوب سقف الرواق الأوسط تقريباً. وعليه فإن مناسيب أسقف إيوان القبلة كانت بمحاذاة بدايات الشرافات بواجهة المدرسة.

٤.٤.١ الصحن

تصف الوثيقة الصحن كالآتي:

٨٧- ... ويدور بوسط

٨٨- قاعة المدرسة المذكورة فسقية مثمنة وظاهرها مرخم بالرخام الملون والمسفن والكرسي

٨٩- الداير بها وبوسط الفسقية المذكورة عمد رخام علوه نوفرة رخام كبيرة مشجرة مذهبة وبلبلة

٩٠- وأرضها مفروش بالبلاط أعني الفسقية وجميع أرض دور قاعة هذه المدرسة

٩١- مفروش بالرخام الملون والبسط والمراتب والاتراس والقمريات البيكارات وأرض

٩٢- باذاهنج الإيوان البحري..

ومن الجدير بالملاحظة ربط الوثيقة التكسيات الرخامية لفسقية وأرض الصحن بأرضية باذاهنج الإيوان البحري، لعل ذلك إشارة إلى التقارب في نوعية الرخام والتصميمات المستخدمة لتركيبه في كل من الموقعين. وبالرغم من عدم وجود آثار الفسقية في وسط الصحن الآن، وخصوصاً أن هناك إنشاءات مؤقتة بهذه المنطقة لخدمة القائمين على الحفاظ على المدرسة، إلا أن د. محمد سيف النصر يذكر أن "حفائر هيئة الآثار المصرية في مارس ١٩٧١ قد كشفت في هذه الدورقاعة عن وجود أساسات هذه الفسقية المثمنة والأنابيب الفخارية التي كانت من مقسم المياه إلى هذه الفسقية وغيرها"[٣٩]. ولا يوجد تحت أيدينا أي تفصيل أكثر مما ذكرته الوثيقة ومما وجده القائمون على حفائر هيئة الآثار في صحن المدرسة، فيما يخص الشكل التفصيلي لأرضيات الصحن والفسقية في منتصفه.

بقي نقطة أخيرة خاصة بارتفاعات الجوانب الأربعة للبناء حول الصحن، مما يحدد الفراغ بشكل قوي، حيث تذكر الوثيقة:

٧٢- ... وبدورقاعة هذه المدرسة المذكورة

٧٣- ستة عشر باباً متجاوراً يغلق على كل منها زوج أبواب نقي مداخل

٧٤- يعلوها خوشك مدهون محمول على كرادين مدهونة يعلوها شرفة وميازيب برسم الأمطار

وعلـيه فقد كان للواجهات على الصحن شرافات وميازيب، مما يرجح بأن ارتفاع الواجهات الأربعة كان متساوياً.

٤.٥. المدخل والصفتان والخلاوي والملحقات

٤.٥.١. الدركاه

من المؤسف أن الجزء المفقود بأول الوثيقة أضاع علينا فرصة معرفة المواصـفات الدقيقة لمدخل المدرسة، وخصوصاً سقفه الذي اندثر تماماً منذ وقت بعيد وأصبح من الصعب الآن معرفة أية تفاصيل لهذا السقف. أما فيما يخصّ أرضيات وكسوة الحوائط، فالوثيقة تذكر:

٧- دهليز مربع مفروش الأرض الرخام الألواح وبدابير..

٨- الصـفاف المذكورة مرخمة بالرخام الأبيض والأزرق والأحمر والأتروفيات

ولعـل هـناك بقـية مـن آثار هذه الأرضيات وتكسيات الحوائط تحت الأنقاض التي تملأ الآن الدركاه.

٤.٥.٢. الصفّتان والخلاوي

تصف الوثيقة الصفتان بما يلي:

٧٠- بين الإيوانين المذكورين صفتان متقابلتان بسطا مدهونا بحور كتابة كوفي وبكل

٧١- مـنهما شـبك حديد يغلق عليه زوج أبواب أحدها قبالة باب القبة المذكورة أعلاه

٧٢- والثاني مطل على باطن القيسارية المستجدة..

وقـد حُوّل شباك الصفّة الشمالية الشرقية إلى باب على الدهليز (وهو المدخل المستخدم حالياً للدخول إلى المدرسة)، بينما اندثرت الكتابات الكوفية

المذكـورة بالوثـيقة ولـم يبق لها أي أثر. أما الصفة الجنوبية الغربية فقد تغـيرت معالمهـا تماماً ولعل هذا التغيير من أعمال عبدالرحمن كتخدا، فقد اسـتبدلت الصـفة بـرواق يطل على الصحن من خلال ثلاثة عقود، وسقفه منخفض، وسدّ الشباك الذي كان يطل على القيسارية.

ولا بـد هـنا من وقفة مع المنطق التصميمي للجانب الشمالي الشرقي للصحن، حيث أننا نلاحظ ارتفاع عقد الصفة بما يوازي طابقين من الخلاوي علـى جانبـيها، وإذا كان ما نراه الآن هو من بناء لجنة حفظ الآثار العربية (انظر شكلي ٣٠ و ٣١)، فإن اللجنة اعتمدت في هذا البناء على الحالة التي وجدتهـا سابقاً (انظر شكل ٣٢). فلو سلّمنا بأن ما توصلت إليه اللجنة هو الوضـع الأصـلي، فـإن ذلك يعني أن السلالم المؤدية للطوابق العليا كانت توصـل في الطابق الثاني إلى ممر ضيق داخل سُمْك الجدار بين هذا الجانب مـن المدرسـة والدهليز الرئيسي للمجموعة، والذي يوزع بدوره للخلاوي (انظـر شكل ٣٣)، ولا توجد ضرورة لهذا الممر في الطابق العلوي حيث لا تقطـع الصـفة الخلاوي، كما أن هناك سقف الدهليز والذي استغله المعمار كموزع للخلاوي (انظر شكل ٣٤).

ولعل أكبر فائدة تعود علينا من فهم المنطق التصميمي للجانب الشمالي الشـرقي، هـو محاولـة التوصل للتصميم الأصلي للجانب الجنوبي الغربي، والـذي تغيرت معالمه بشكل كبير بسبب الرواق الذي بناه عبدالرحمن كتخدا بـدلاً مـن الصـفة والخلاوي الشمالية بذلك الجانب. فنحن نعلم من وصف الوثـيقة بوجـود السلم الخاص بهذا الجانب في طرفه الشمالي (انظر الشكل ٣٣)، وبالتالي فإن التوزيع للخلاوي كان بنفس الأسلوب الذي تم في الجانب المقـابل (الشمالي الشرقي)، ولعل الدخلات بالجزء الجنوبي من هذا الجانب كانت فتحات شبابيك لخلاوي تم سدّها بعد بناء عبدالرحن كتخدا لرواقه، وهم السـلّم والممر المؤدي لهذه الخلاوي بالطابق الأول، حيث أن وجود غرفتين بالطابق الأرضي تحت هذه الدخلات يؤكد على وجود المساحة الكافية لوجود خلاوي بالطابقين الأول والثاني.

وإذا كانـت لجـنة حفظ الآثار قد أعادت بناء الجانب الشمالي الشرقي باخـتلاف كبير بين شكل الشبابيك في الطابقين الأول والثاني من جانب وبين

الشبابيك في واجهة إيوان القبلة على الصحن من جانب آخر (شكل ٣٠)، فلابد أن اللجنة استندت في ذلك إلى شكل الشبابيك التي وجدتها قبل التدخل بالمبنى (شكل ٣٢)، وعليه فقد يبدو أن المعمار راعى تناسق أشكال الفتحات بين كل واجهتين متقابلتين، دون أن يهتم بهذا التناسق بين الواجهات الأربعة على الصحن. إلا أننا لو قارنّا بين تصميم الدخلات المعقودة أعلى الأبواب في جنوب الواجهة الجنوبية الغربية، مع تصميم الفتحات العلوية في واجهة الإيوان القبلي على الصحن (شكل ٣٥) لوجدنا من التناسق ما يجعلنا نرجّح أن لجنة حفظ الآثار العربية قد جانبها الصواب في تصميم الفتحات العلوية لواجهة الجانب الشمالي الشرقي، وأن الاحتمال الأكبر أن هذه الفتحات كانت شبيهة بالدخلات المعقودة بالواجهة المقابلة لها والتي تركها عبدالرحن كتخدا، من حسن الحظ، عند إنشائه للرواق في هذا الجانب. ثم تضاعف حسن الحظ بأن تركت لجنة حفظ الآثار هذا الجانب على حالة دون أن تعيد بناءه على أساس تصورها للتصميم المملوكي الأصلي كما فعلت في كثير من المباني الأثرية الأخرى بالقاهرة.

الخلاصة

يرجو الباحث أن تكون هذه الدراسة قد حققت الهدف منها، وهو الفهم الدقيق للمبنى الأثري بجميع جوانبه من أجل الوصول لقرارات صائبة للحفاظ عليه، وسيتبع هذا البحث بحثاً آخر إن شاء الله لدراسة ومناقشة الحفاظ والترميم المعماري للمدرسة المنصورية، بناء على نتائج هذه الدراسة.

يضع الباحث هذه الدراسة بين يدي العاملين في الحفاظ والترميم المعماري للمباني الأثرية بصورة عامة وآثار مدينة القاهرة بصورة خاصة، كمثال لأهمية استخدام كل الأدوات البحثية المتاحة، واستخدام جميع الأساليب العملية والنظرية من أجل الفهم الصحيح للمبنى الأثري قبل أي قرار بالتدخل في المبنى الأثري بالحفاظ أو الترميم أو الصيانة. وعدم الركون لما وصل إليه السابقون من علماء ومرممين، فقد تكون هناك أدلة جديدة متاحة لدينا اليوم لم تكن متاحة لمن سبقونا، مثل رسمة الرحالة التي وجدها الباحث لإيوان القبلة بالمدرسة والتي من المؤكد أنها لم تكن متاحة لهرتس باشا عندما وضع تصوّره لتسقيف الإيوان (أنظر شكل رقم ٢٠)، وكذلك الوثقة

التـــي نشـــرها د. سيف النصر، والتي لم تدع مجالاً للشك فيما يخص شكل سقف هذا الإيوان.

كما أن تحليل معطيات الموقع والفكر التصميمي للمعمار، بالإضافة لكل المصـــادر الأخرى من وثائق وكتابات مؤرخين، ورسومات ووصف رحالة، وصور قديمة، وتقارير أعمال ترميم سابقة، لابد وأن يساعد كثيراً على فهم المبـــنى الأثـــري بجوانـــبه المخـــتلفة، ويعتـــبر هذا البحث مثالاً جيداً لهذه المنهجـــية، إلا أن الباحـــث يـــرجو أن تتاح له الفرصة لإكمال العمل بنفس المنهجـــية على باقي عناصر مجموعة السلطان قلاوون، وهي البيمارستان والقبة والمشتملات من مدخل ودهليز وفناء.

كمـــا يرجو الباحث أن تتم الإستفادة من هذه الدراسات في الحفاظ على مجموعة السلطان قلاوون، وأن تتاح له الفرصة لإكمال هذه الدراسات أثناء أعمال الحفاظ والترميم للمجموعة، حيث تعتبر أعمال الترميم فرصة تاريخية لفهـــم صـــحيح للمبنى الأثري، فالسقالات المقامة تتيح للباحث الإقتراب من الأثـــر، كما تتيح التجارب والإختبارات والمجسّات المصاحبة لأعمال الترميم المعماري التأكد من العديد من الفرضيات والتوقعات.

هوامش البحث:

١ د. محمد حمزة إسماعيل الحداد، السلطان المنصور قلاوون (تاريخ – أحوال مصر في عهده – منشآته المعمارية)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٣.

٢ تقـــي الدين أبي العباس بن علي المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الجزء الثاني، دار صادر، بيروت، ص ٤٠٦.

٣ شـــاعر وفيلســـوف ورحالـــة فارسي زار مصر في عهد المستنصر وأقام بالقاهرة لثلاث سنوات تقريباً.

٤ ناصـــر خســـرو علـــوي، ترجمة د. يحيى الخشاب، ناصر خسرو علوي، سفرنامه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ١٠٤.

٥ المقريزي، المصدر السابق، ص ٤٠٦.

٦ د. الحداد، المصدر السابق، ص ١٦٢.

٧ المرجع السابق.

٨ المرجع السابق.

٩ محمد حسام الدين اسماعيل عبدالفتاح، "بعض الملاحظات على العلاقة بين مرور المواكب ووضع المباني الآثارية في شوارع مدينة القاهرة" في حوليات إسلامية، المجلد ٢٥، ١٩٩٠، ص ٨١ – ٩٣.

١٠ حسن عبدالوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١١٤. بينما يذكر علي مبارك أن ذلك لنسبة العناصر الأخرى بالمجموعة للبيمارستان فقيل للمدرسة "جامع المارستان". علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج٥، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢٢٦، ذكر ذلك د. محمد حمزة، المصدر السابق، ص ١١٢.

١١ محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار، تحقيق علي منتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥، ج١، ص ٥٤.

١٢ القاسم بن يوسف بن محمد بن علي التجيبي، مستفاد الرحلة والإغتراب، تحقيق عبدالحفيظ منصور، الدار العربية لكتاب ليبيا، تونس، بدون تاريخ، ص ٤ – ٥، نص أورده د. محمد محمد الكحلاوي، آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٢٦.

١٣ خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي، تارج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، مطبعة فضالة، المغرب، بدون تاريخ، ج ١، ص ٢١٩، نص أورده د. الكحلاوي، المصدر السابق.

١٤ المقريزي، المصدر السابق.

١٥ الحداد، المصدر السابق، ص ١١٤ – ١١٧.

١٦ قد يكون انكسار المدخل هدفاً تصميمياً في حد ذاته كأحد خصائص البناء في تلك الفترة، ولكن ما نشير إليه هو أن مسار هذا الانكسار جاء نتيجة لمعطيات تصميمية خاصة بالضريح والمدرسة وليس بالبيمارستان.

١٧ أنظر هامش رقم (٣) في مقال د. آمال العمري، "دراسة جديدة على ضريح المنصور قلاوون بالنحاسين (٦٨٣-٦٨٤ / ١٢٨٤ – ١٢٨٥)" في دراسات آثارية إسلامية، المجلد ٣، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٤٩ – ٦١.

١٨ بنيـــت المئذنة الحالية الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٠٣ هجرية، ١٣٠٣ ميلادية، على أثر سقوطها في زلزال عام ٧٠٢/ ١٣٠٢ وسجل ذلك على نص منقوش بالدورة الأولى للمـــئذنة (أنظر حسن عبدالوهاب، المرجع السابق، ص ١١٦ – ١١٧)، إلا أن التصـــميم المعمـــاري والإنشائي للمبنى يؤكد أن المئذنة الجديدة بنيت على ما تبقى من الجزء السفلي للمئذنة الأصلية، كما يذكر النص:

"بسم الله الرحمن الرحيم اللهم جدد الرحمة والرضوان على روح الملك المنصور رحمه الله امر بتجديد هذه المأذنة في أيام ولده مولانا السلطان الملك الناصر أبو الفتح محمد وذلك عند ظهور الآيات المنزلة وسقوط أعاليها عند حدوث الزلزلة في شهور سنة ثلاث وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام".

١٩ **Doris Behrens-Abousef, The Minarets of Cairo, AUC Press, Cairo, 1985, pp. 70-71:**

"Unlike previous Cairene minarets,..., the minaret of Qalaeun is set at a distance from the entrance. It stands on the northern corner of the building with mausoleum dome and the rest of the complex to its rear. From this exposed position it faces Bab al-Nasr and Bab al-Futuh, the starting point for the post-investiture processions, which began with Salah al-Din, ended after the death of Sultan al-Nasir Muhammad in 1341. The inscription of the minaret start on the northern side, facing the road".

٢٠ المقريزي، المصدر السابق، ص ٣٨٠.

٢١ المرجع السابق.

٢٢ المرجع السابق، ص ٣٨١.

٢٣ تذكـــر الوثـــيقة "حوض من الجرانيت كان مخصصاً لسقي الدواب". وثيقة قلاوون رقم ٦٠٧ جديـــد، محفوظة بدفترخانة وزارة الأوقاف، وتاريخ إسجالها الحكمي في أول المحرم سنة ٦٨٥ (فـــبراير ١٢٨٦) نشـــرها لأول مرة د. محمد سيف النصر أبو الفتوح، "مدرسة الســـلطان المنصور قلاوون بالنحاسين بالقاهرة، دراسة أثرية في ضوء وثيقة جديدة"، في مجلة كلية الآداب، منشورات جامعة صنعاء، ١٤٠٥ – ١٩٨٤ م، ص ٧٧ – ١٢٧.

ذكـــر المقريـــزي أن الأمير جمال الدين أقوش "...نقل أيضاً حوض ماء كان يرسم شرب البهائم من جانب باب المارستان وأبطله لتأذي الناس بنتن رائحة ما يجتمع قدامه من الأوساخ وأنشأ سبيل ماء يشرب منه الناس عوض الحوض المذكور..." المرجع السابق، ص ٤٠٧.

٢٤ الدكـــتور أحمـــد فكـــري، مساجد مصر ومدارسها، الجزء الأول العصر الأيوبي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩، ص ١٥٥:

"كانت وظيفة المدرسة الأولى، كما سنرى، إعداد مكان ملحق بموضع التدريس، وهو المسجد الجامع، لسكنى طبقة مختارة من المدرسين والطلاب، أو على الأصح، كان الغرض من إنشاء المدرسة هو إعداد المسجد الجامع الذي يتحلق فيه الفقهاء، بحيث يضم، في الوقت نفسه، بيوتاً لسكناهم، ومنافع عامة تتطلبها هذه السكنى. وسنرى أن النصوص التاريخية والأثرية توضح هذه الحقيقة".

٢٥ المقريزي، المصدر نفسه، ص ٣٨١.

٢٦ وتعتبر دراسة ستيفان همفريز من أهم الدراسات التي تحلل هذه المسألة:

"...there are numerous features in the Mamluk *madrasa* of Cairo which cannot be explained by its ritual and teaching functions, and these also occur in other monumental types where they seem equally inapplicable to the primary function of the building. Moreover, they comprise precisely those elements of the Mamluk style which make the strongest and most immediate impression on the observer: the great domes, the towering minarets, the monumental portals. All these features, I believe, must be interpreted as at least partially secular in intent: the portal and the dome stem from a cycle of princely self-glorification, while the minaret's function was never wholly religious".

R. Stephen Hmphreys, "The Expressive intent of the Mamluk architecture of Cairo: A preliminary essay", in Studia Islamica, 35, 1972, pp. 69-119.

٢٧ المقريزي، المصدر نفسه، ص ٤٠٨.

٢٨ نشره حسن عبد الوهاب، المصدر السابق، وآخرون.

٢٩ وقـــد اتضح من الوثيقة التي نشرها وحققها سيف النصر أن كل الشبابيك التي في هذه الواجهـــة مســـتحدثة إلا شباك السدلّة الشمالية الشرقية والذي تحول إلى الباب الذي يستخدم حالياً كمدخل للمدرسة، فقد كان مكان هذه الشبابيك فتحات مصمتة بجدار القـــبلة (بمعـــنى آخـــر، لم يكن هناك غرض وظيفي لهذه الدخلات إلا تحقيق التماثل في جداري الدهليز)، سيف النصر، المرجع السابق.

٣٠ سيف النصر، المصدر السابق، ص ١٠٠.

٣١ الحداد، المصدر السابق، ص ١١٤ – ١١٧.

٣٢ أنظـــر ســـامي عبدالحليم، الحجر المشهّر، حلية معمارية بمنشآت المماليك في القاهرة، ١٩٨٤، ص ٣٩.

٣٣ الوثيق سطر ١٠٨، كما أوردها محمد سيف النصر، المرجع السابق، ص ١٠٩.

٣٤ محمد سيف النصر، المرجع السابق.

٣٥ المرجع السابق، ص ١٠٨.

٣٦ ليس صحيحاً ما ذكره د حسني نويص من أن "هذه المدرسة ذات إيوانين فقط وصحن مكشوف يحيط به خلاوي الطلبة" في كـــتابه العمـــارة الإسلامية في مصر، عصر الإيوبيين والمماليك، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١٦٧، حيث جاء في الوثيقة أن المدرسة تتكون من إيوانين وصفّتين. أنظر محمد سيف النصر، المرجع السابق، ص ٨٣.

٣٧ حيث أنه من المعروف، من خلال استقراء الآثار المملوكية المتبقية، أن المعمار المملوكي كان يميل إلى تحقيق التماثل خصوصاً في واجهات الصحن.

٣٨ د. عفيف بهنسي، الجمالية الإسلامية في الفن الحديث، دار الكتاب العربي، دمشق، ص ٣١٥، نشرت الرسمة المذكورة تحت رقم ١٥، وتحت عنوان: دوزا – جامع وبيمارستان بـــرقوق – القاهـــرة ١٨٥٨. ســـنعود لمناقشة أهمية هذه الرسمة في مرحلة لاحقة من الدراسة.

٣٩ د.محمد سيف النصر، المرجع السابق، ص ١٢٦، هامش ٣٤.

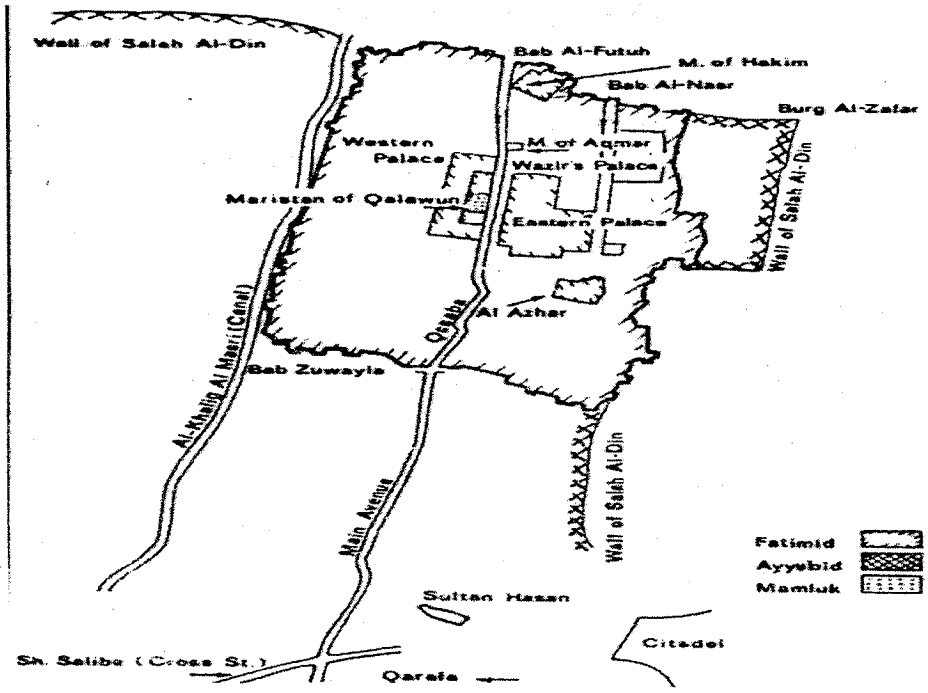

شكل (١): كروكي لخريطة القاهرة الفاطمية موقعاً عليها موقع مجموعة قلاوون (عن كارولين وليامز)

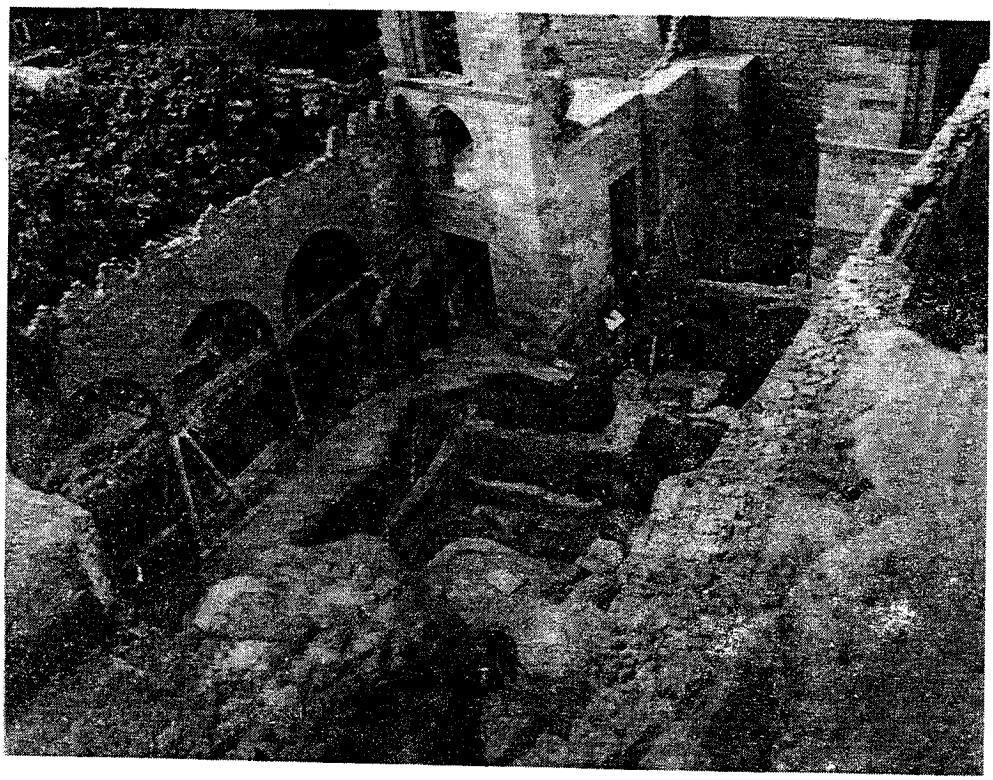

شكل (٢): حفائر المدرسة المنصورية

(صورة قديمة بدون تاريخ من مركز المعلومات بالمجلس الأعلى للآثار)

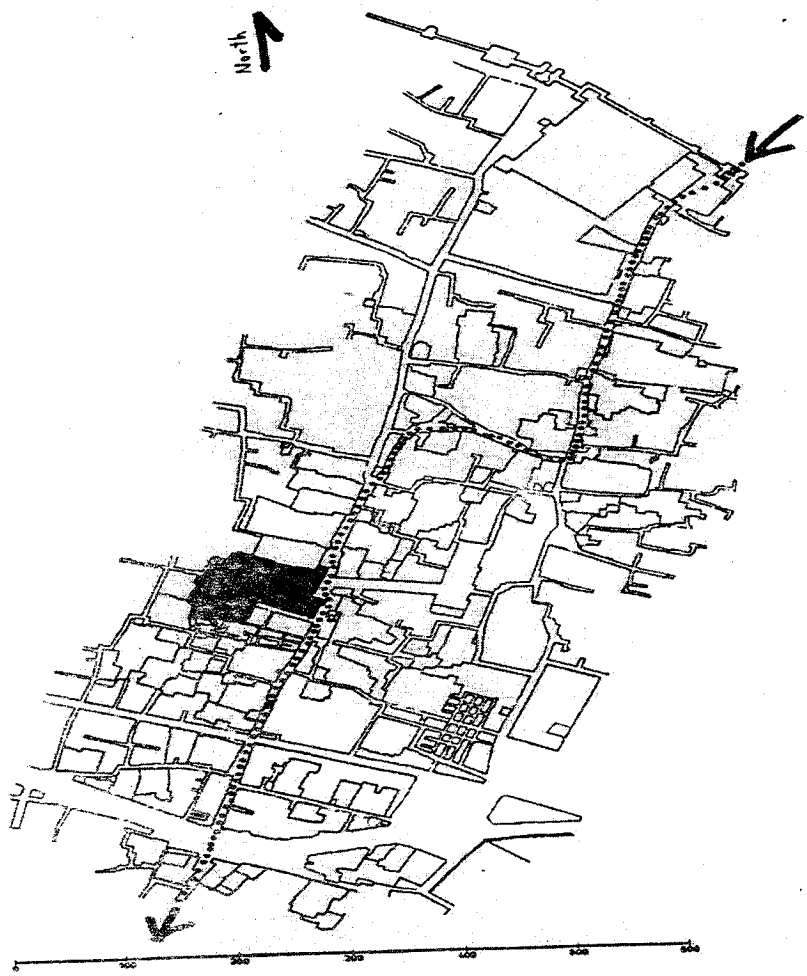

شكل (٣): خط سير المواكب السلطانية والمواكب الرسمية ذات الأهمية السياسية، وعلاقة مجموعة قلاوون به، بناء على دراسة الدكتور محمد حسام الدين إسماعيل، موقعاً على خريطة اليونسكو للآثار الإسلامية بالجمالية.

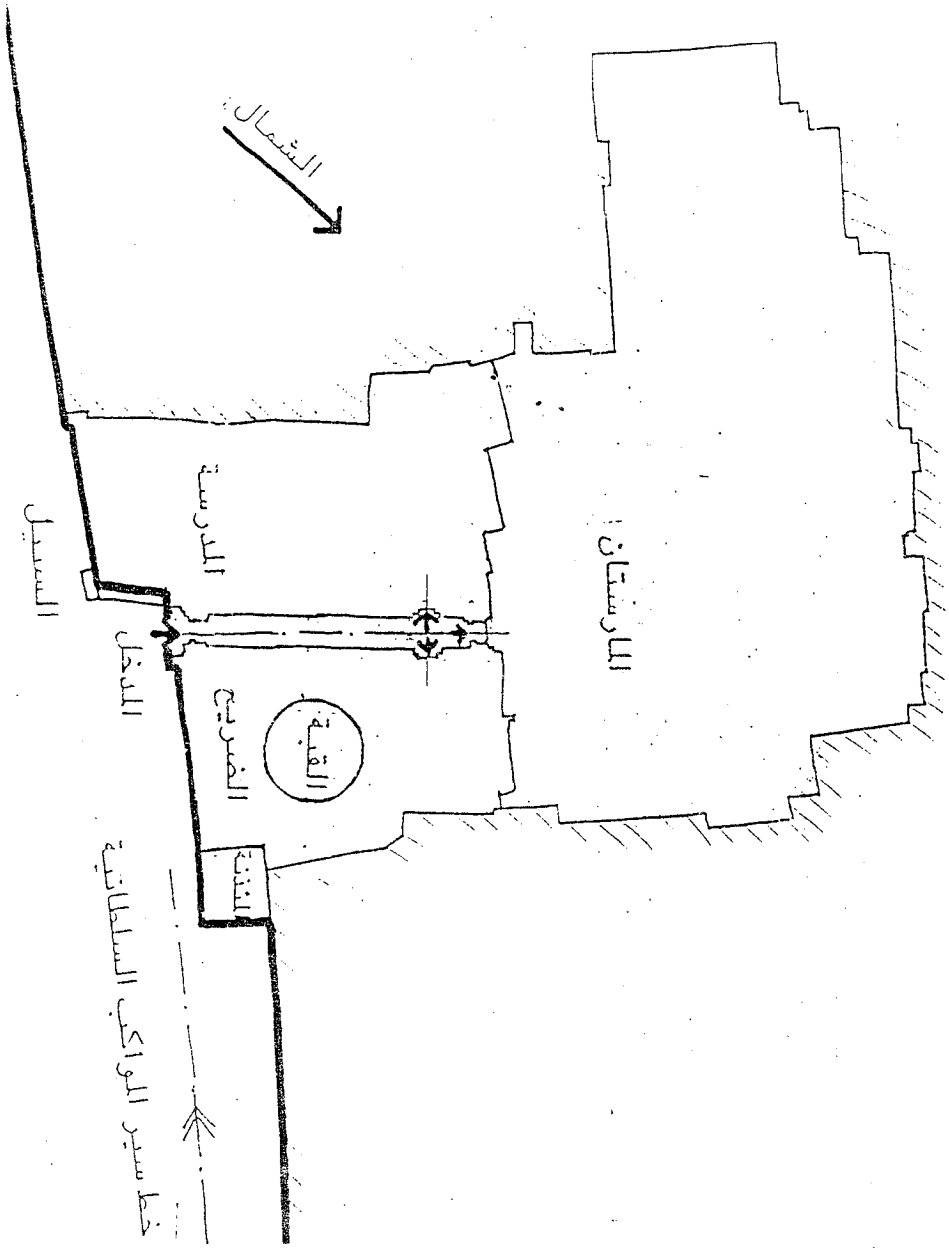

شكل (٤): كروكي يوضح علاقة العناصر المختلفة لمجموعة قلاوون ببعضها وبشارع المعز لدين الله

شكل (٥): رسمة لأحد الرحالة لشارع المعز لدين الله وتظهر مئذنة قلاوون في الصدارة

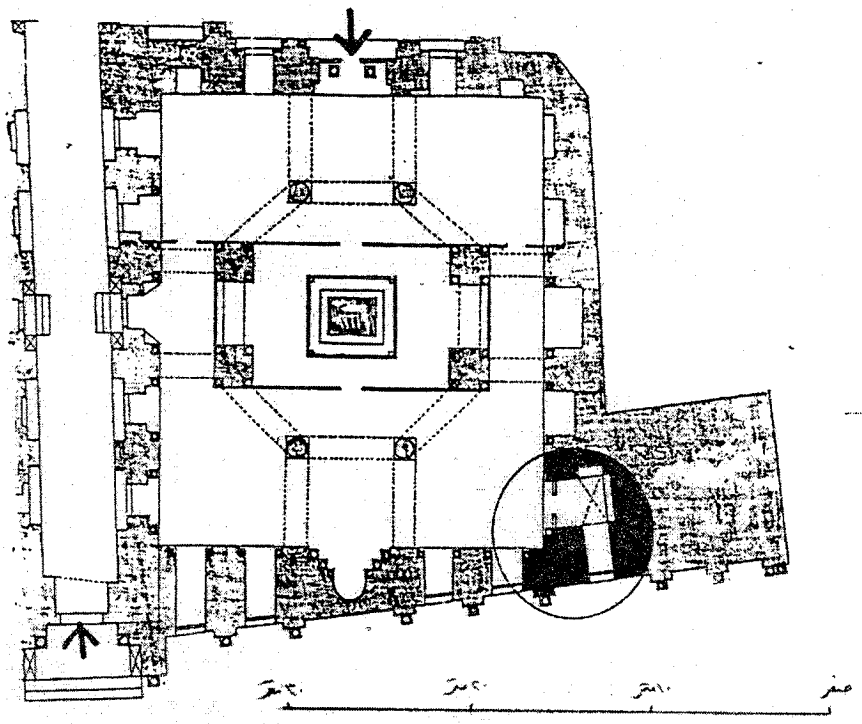

شكل (٦): الممر الطويل ذو التصميم المعقد والذي يوصل الشباك الشرقي للضريح بالشارع عن طريق الواجهة الشمالية.

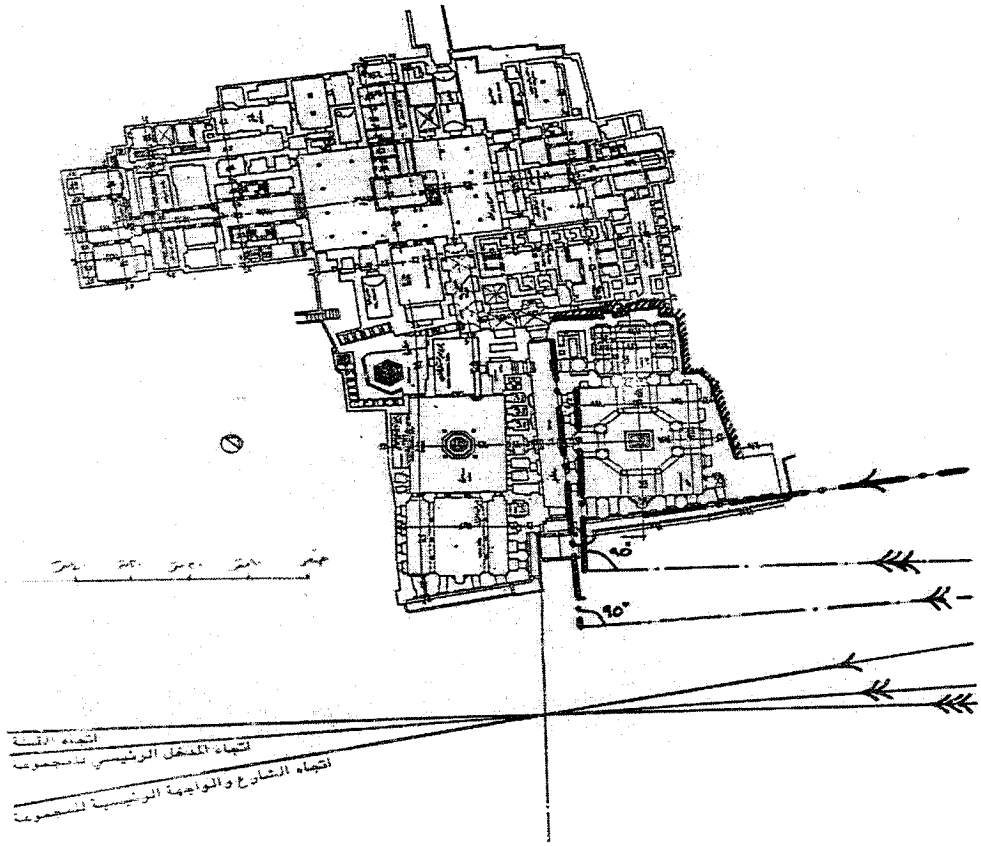

شكل (٧): الاتجاهات الثلاثة المؤثرة في تصميم قبة قلاوون (اتجاه القبلة، واتجاه الشارع والواجهة الرئيسية للمجموعة، واتجاه المدخل الرئيسي للمجموعة).

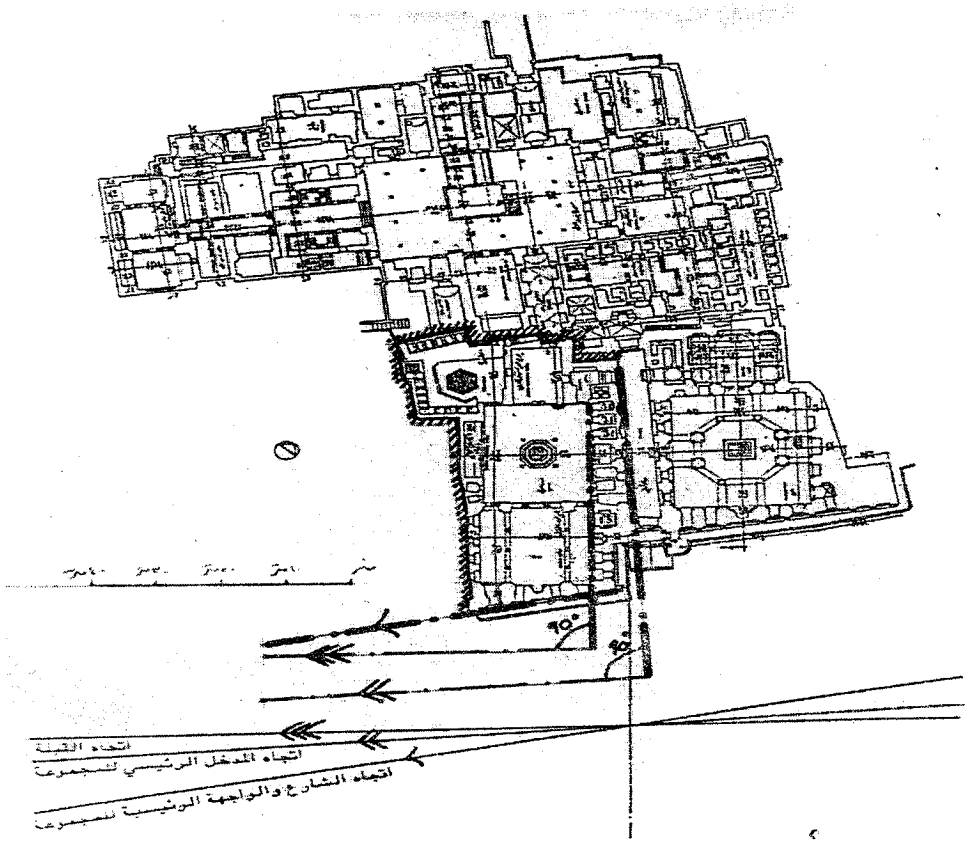

شكل (٨): الاتجاهات الثلاثة المؤثرة في تصميم المدرسة المنصورية.

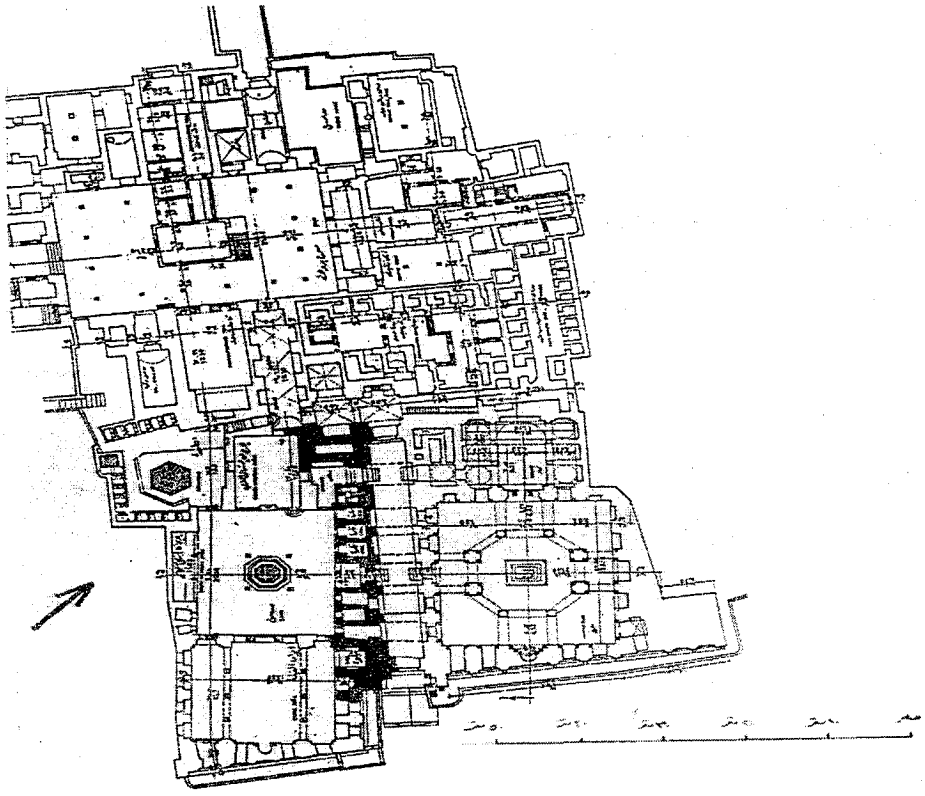

شكل (٩): التماثل بين واجهتي كل من الضريح والمدرسة على الدهليز.

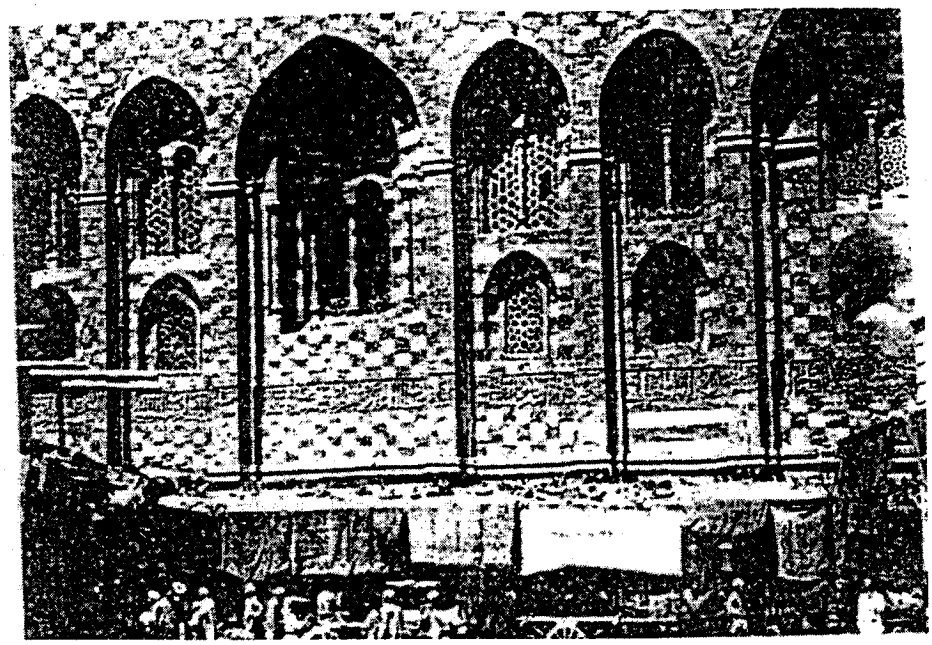

شكل (١٠): صورة فوتوغرافية قديمة للحجر المشهر بواجهة مجموعة قلاوون.

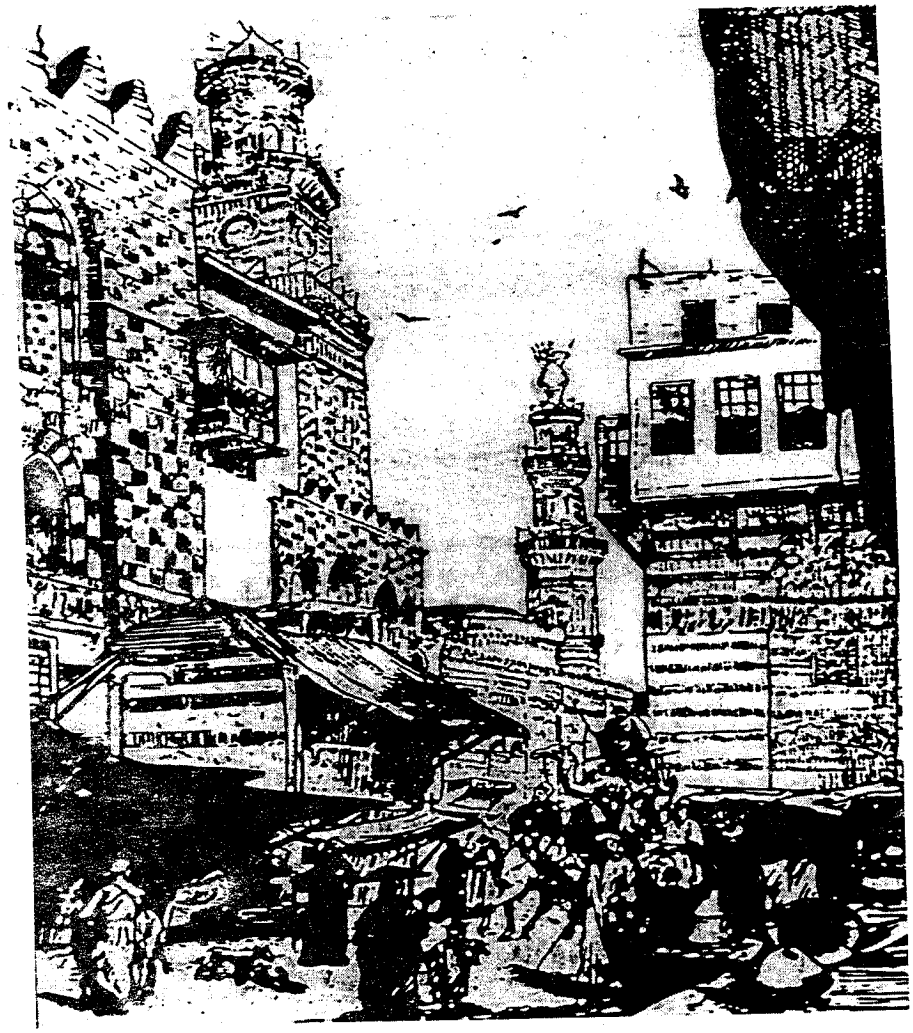

شكل (١١): رسم لأحد الرحالة لمجموعة قلاوون يظهر بها الحجر المشهر بالواجهة.

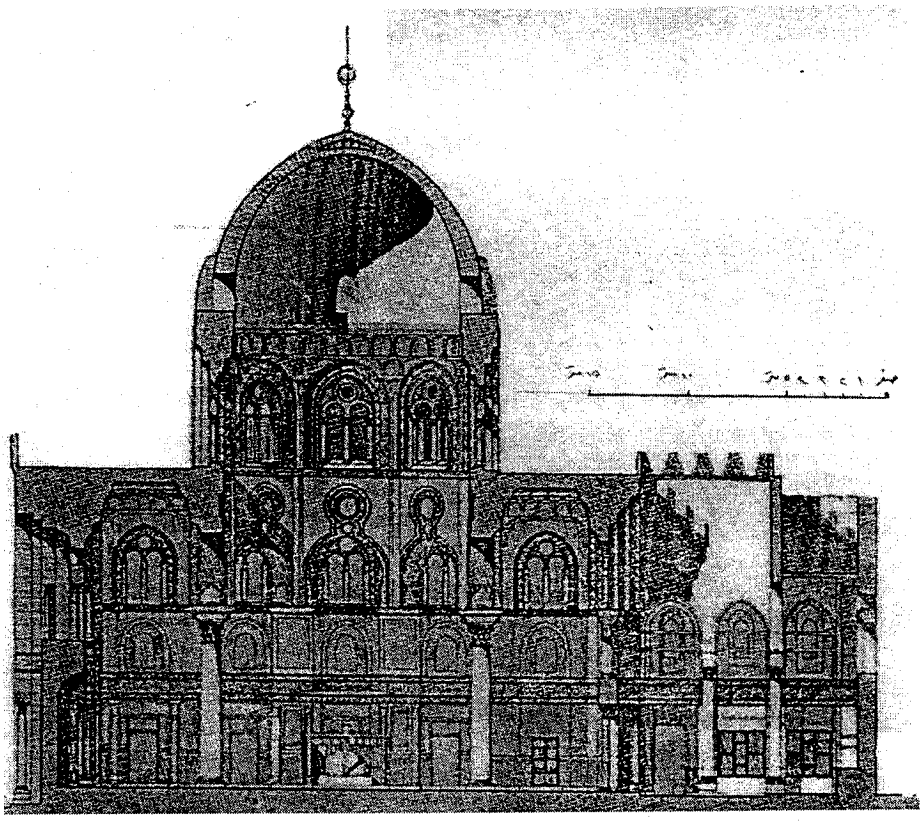

شكل (١٢): قطاع لضريح قلاوون يوضح علاقة السقف المستوي للضريح بارتفاع واجهة المجموعة ومنسوب الشرافات بالواجهة.

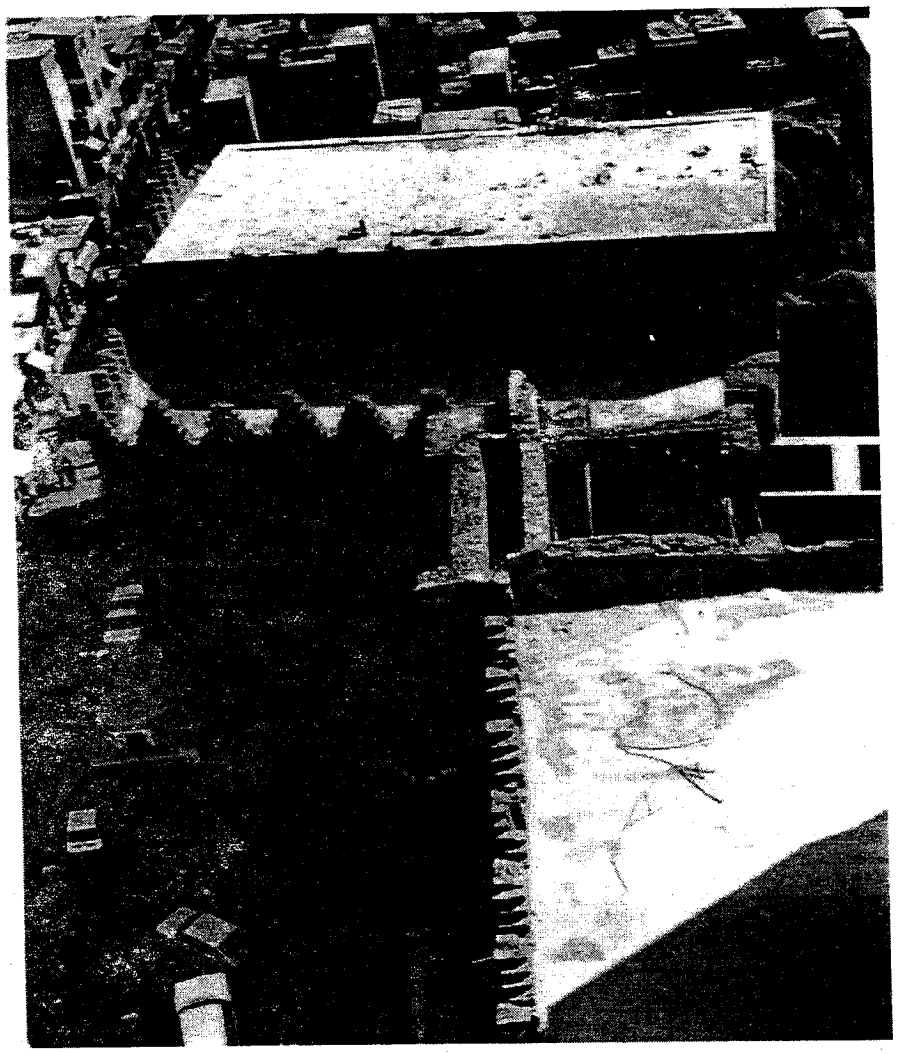

شكل (١٣): صورة من المئذنة توضح علاقة ارتفاع واجهة المجموعة على شارع المعز بمنسوب أسقف أروقة إيوان القبلة بالمدرسة، ومقارنة ذلك بمنسوب سقف الضريح.

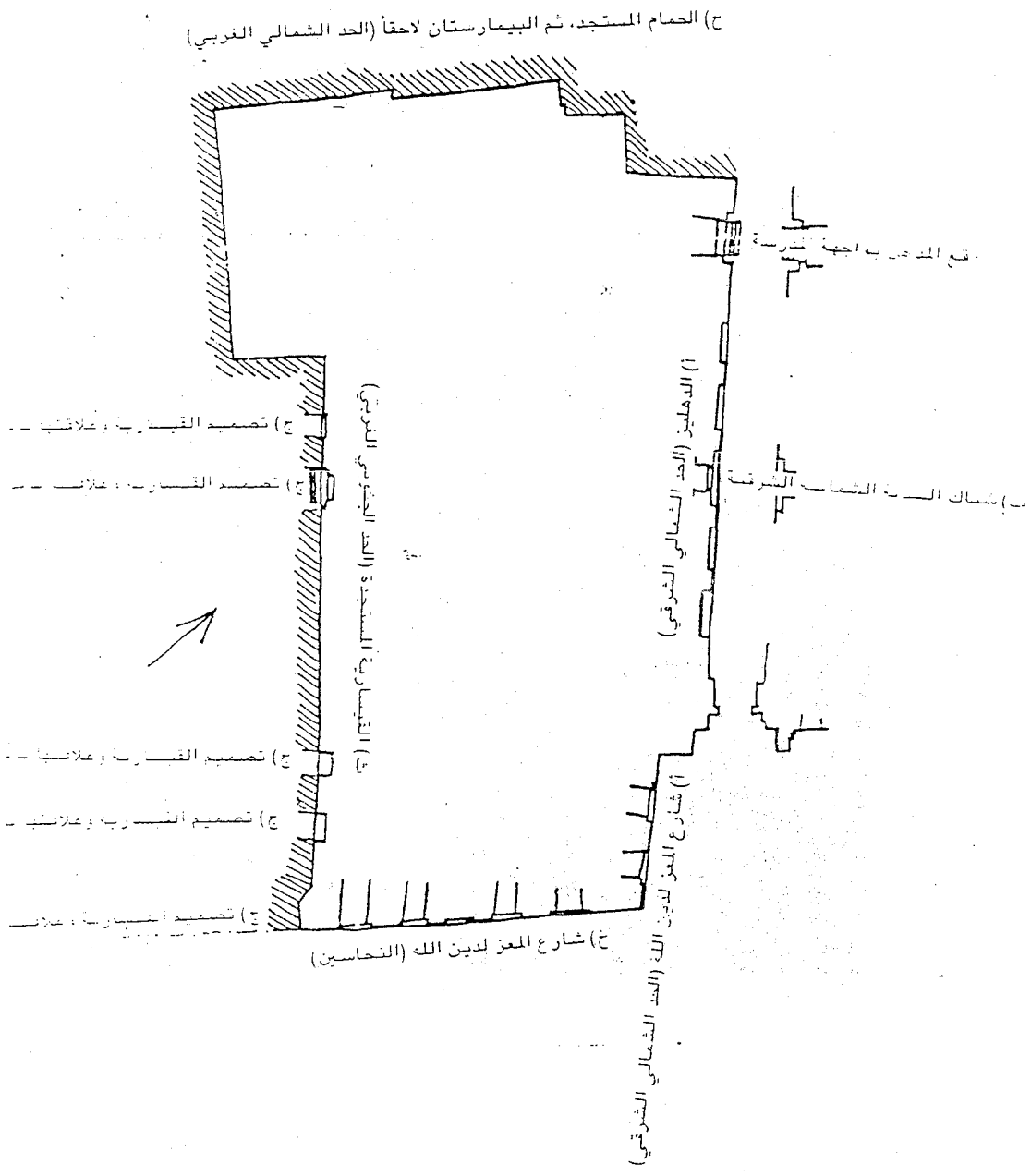

شكل (١٤): المحددات المسبقة التي فرضها الموقع على تصميم المدرسة.

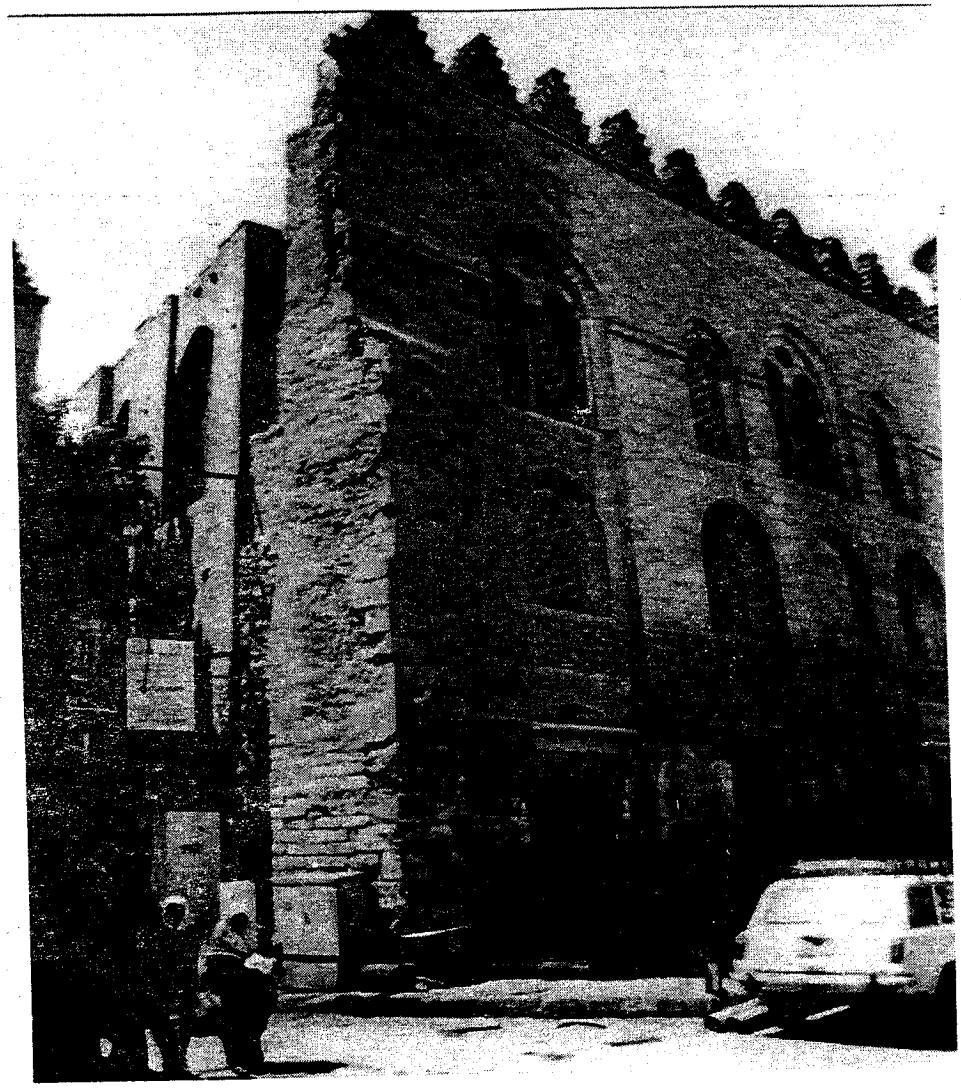

شكل (١٥): القطع المفاجئ في الواجهة الرئيسية للمدرسة، مما يؤكد التصاق الواجهة في هذا المكان بواجهة القيسارية المستجدة التي كانت موجودة بالموقع هذه الناحية وقت بناء المدرسة.

شكل (١٦): حالة الجدار الجنوبي الغربي للمدرسة المنصورية وتوزيع الفتحات به (الفتحات التي ورد ذكرها في الوثيقة فقط، وليست الفتحات المستجدة لاحقاً) تنبئ عن علاقة تصميم هذا الطرف من المدرسة بتصميم القيسارية المستجدة التي كانت بهذا الموقع وقت إنشاء المدرسة، والتي تذكرها الوثيقة.

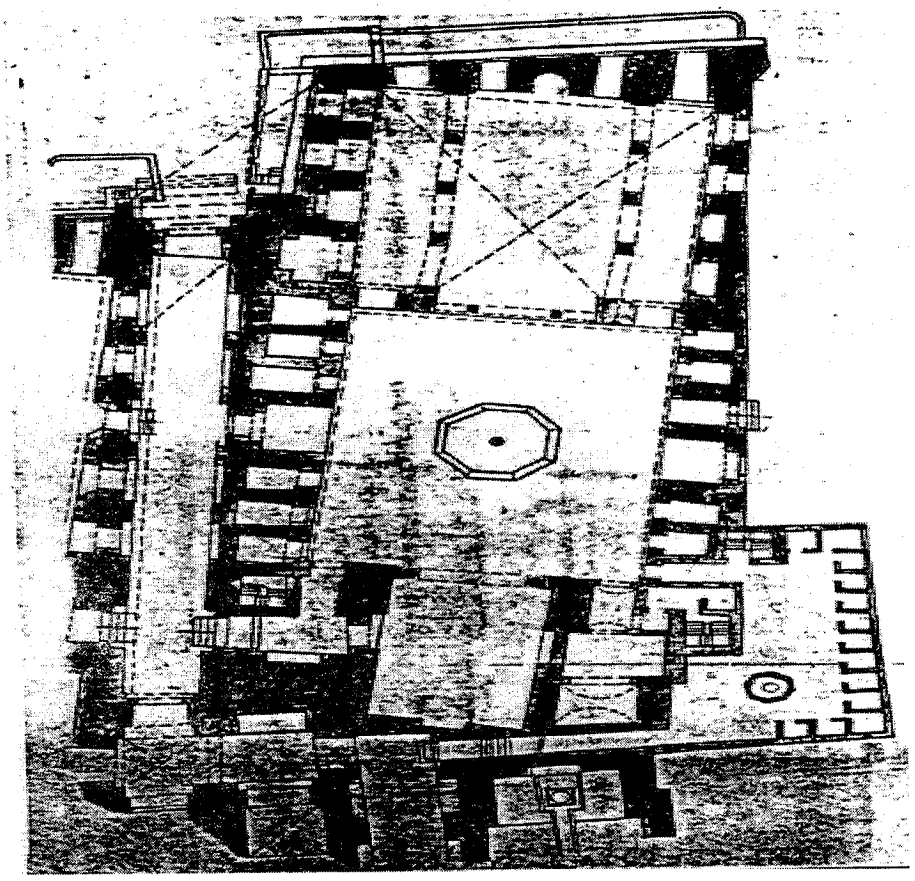

شكل (١٧): تصور المسقط الأفقي للمدرسة المنصورية من عمل د. محمد سيف النصر، لاحظ الاختلاف بين واجهتي الإيوانين البحري والقبلي للصحن.

شكل (١٨): صورة فوتوغرافية لحالة إيوان القبلة كما وجدته لجنة حفظ الآثار العربية، بعد إزالة الإضافات المستجدة، والتي تخبئ عناصره المميزة.

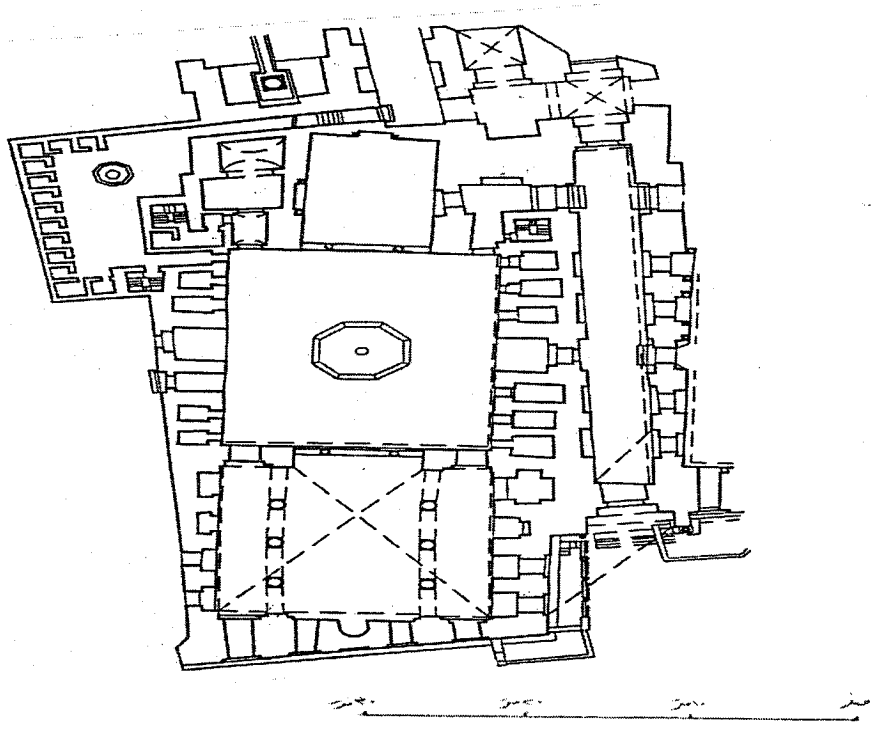

شكل (١٩): تصور المسقط الأفقي للمدرسة وقت بنائها، على أساس تحليل المنطق التصميمي المعماري للمبنى، لاحظ تماثل واجهتي الإيوانين البحري والقبلي حول الصحن.

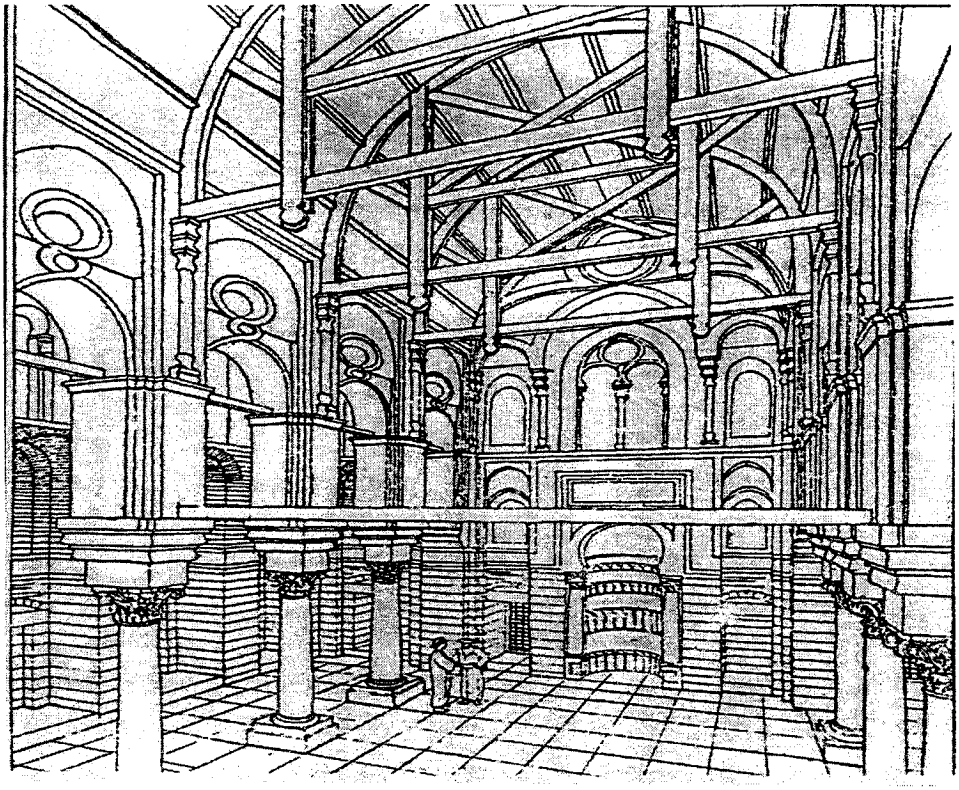

شكل (٢٠): تصور ماكس هرتس لسقف إيوان القبلة، كما نشره كريزويل.

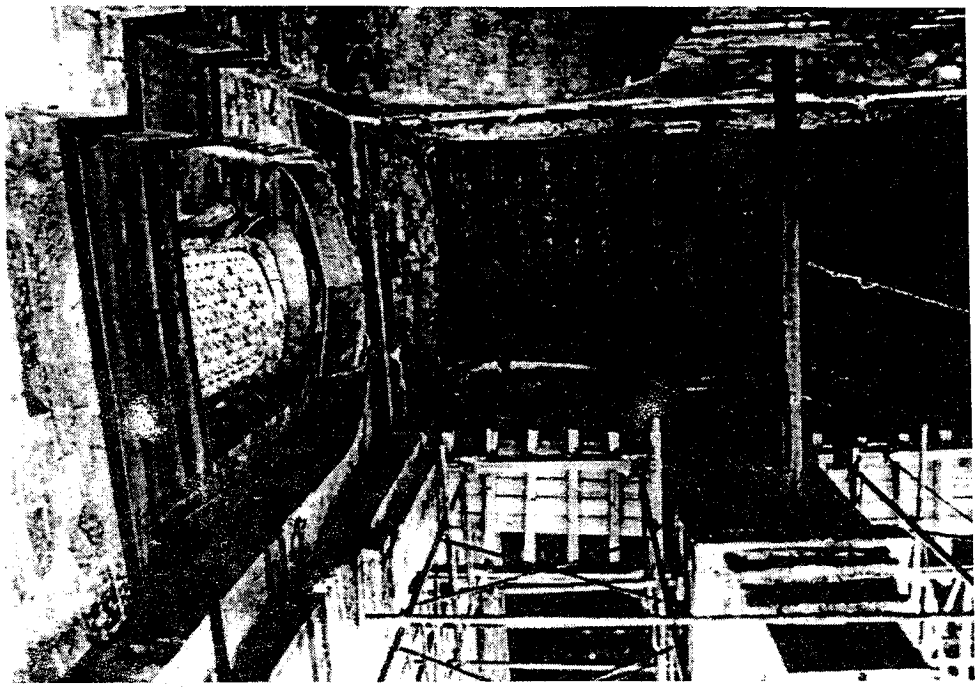

شكل (٢١): صورة فوتوغرافية حديثة توضح الآثار الباقية لبدايات القبوات المتقاطعة التي كانت تسقف الرواقين الجانبيين لإيوان القبلة.

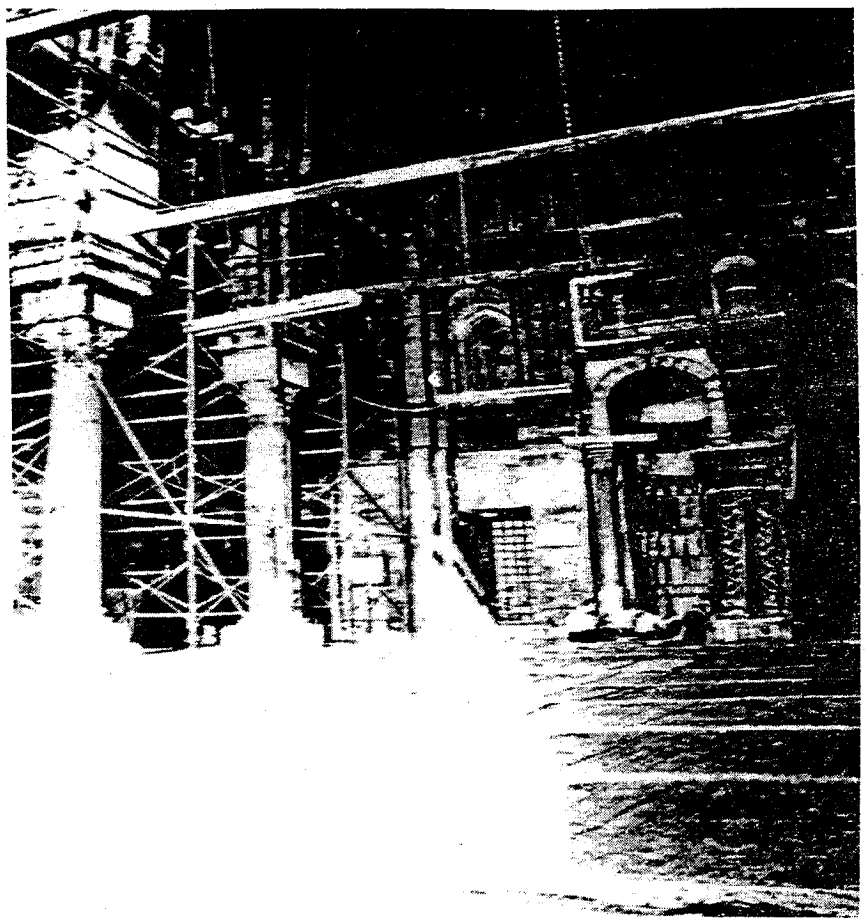

شكل (٢٢): صورة فوتوغرافية حديثة توضح الأوتار السفلية الموجودة الآن فوق تيجان الأعمدة بالرواق الأوسط من إيوان القبلة.

شكل (٢٣): رسمة لأحد الرحالة لإيوان القبلة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

شكل (٢٤): صورة حديثة لواجهة إيوان القبلة على الصحن اليوم والجزء العلوي منه أنشأته اللجنة بناء على تصور أعضائها للتصميم الأصلي لهذه الواجهة.

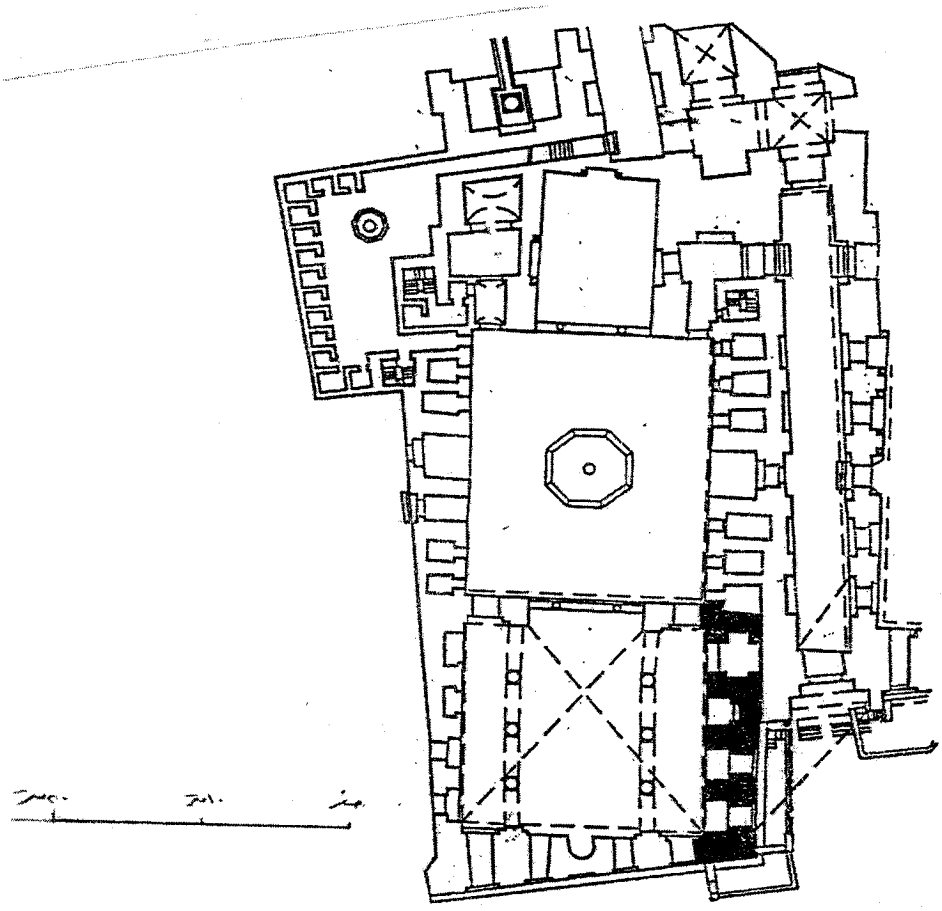

شكل (٢٥): اختيار المعمار لإهدار جزء كبير من مساحة إيوان القبلة وواجهته على شارع المعز لدين الله في سبيل حفاظه على التماثل الداخلي لفراغ إيوان القبلة، وكذلك حفاظه على التماثل بين الواجهات الداخلية المطلة على الصحن.

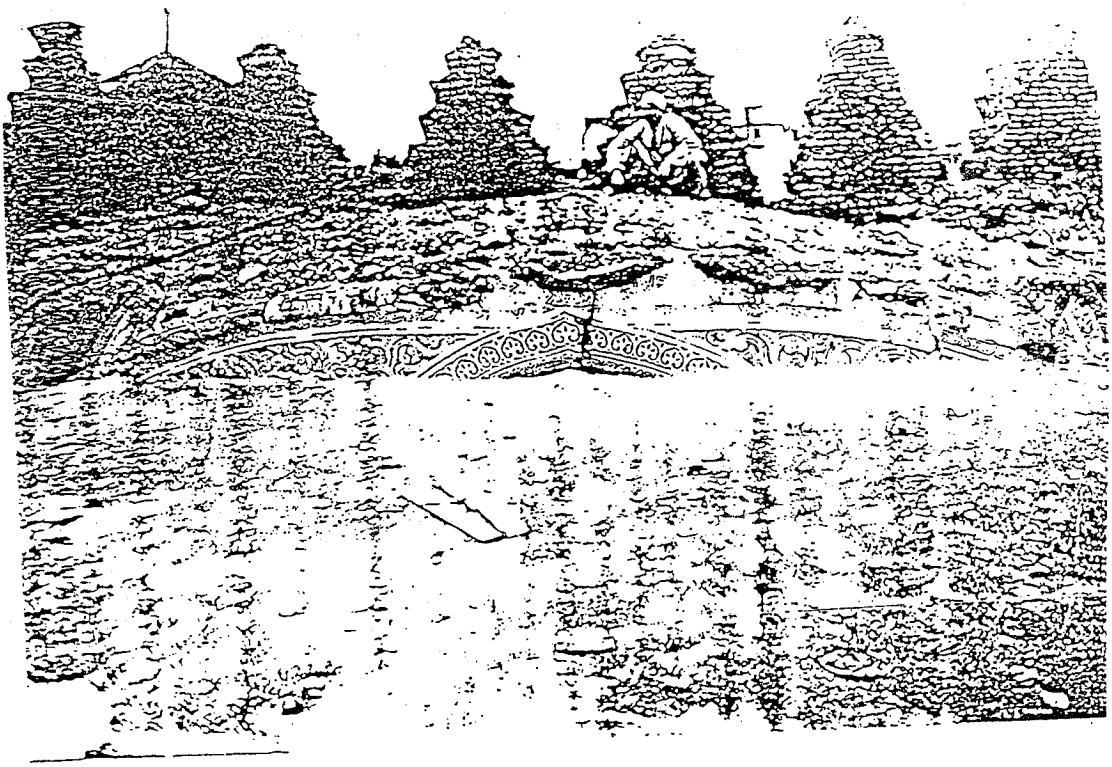

شكل (٢٦): علاقة صدر الرواق الأوسط بإيوان القبلة بشرافات الواجهة قبل ترميمات اللجنة.

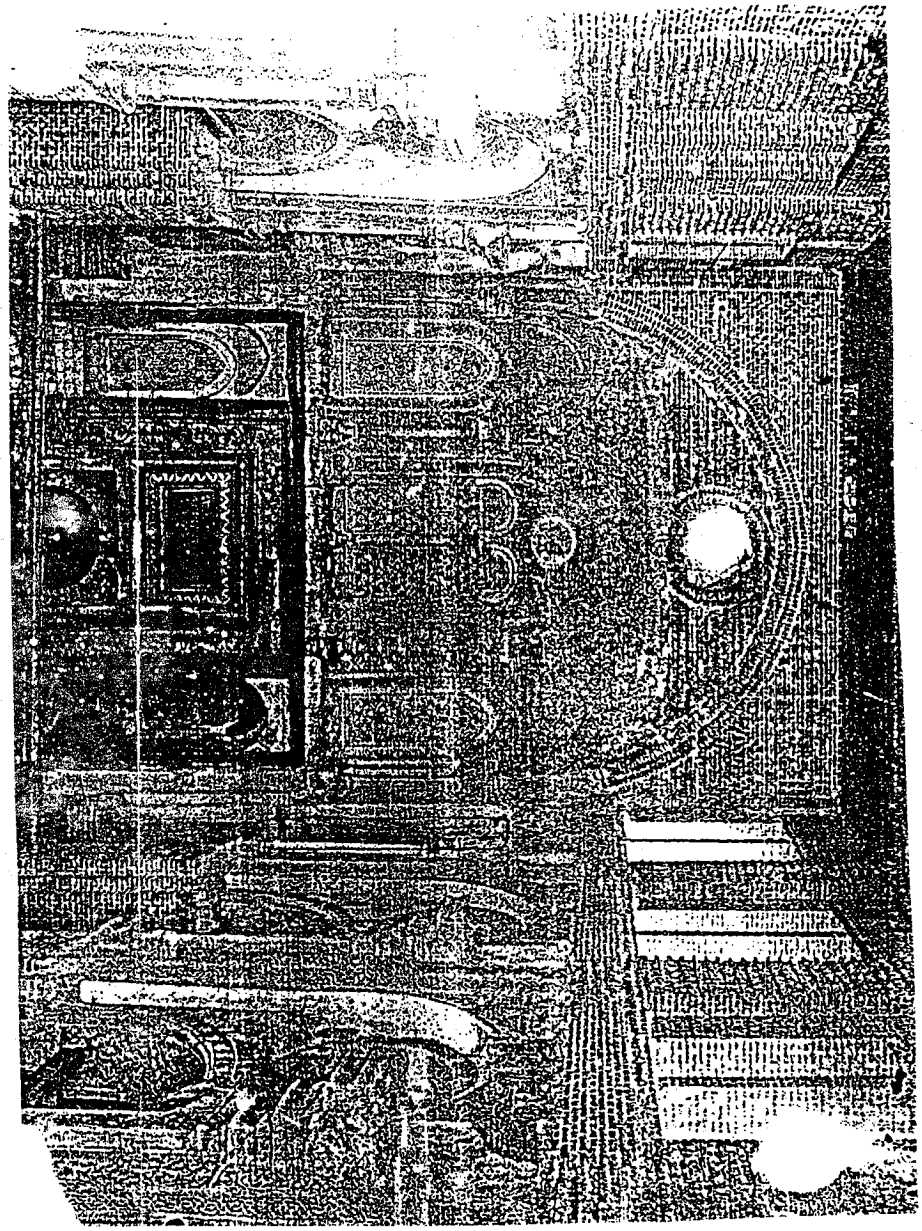

شكل (٢٧): الزيادة الرأسية التي أضافتها اللجنة لواجهة الرواق الأوسط بإيوان القبلة (قبل بياضها)، بناء على تصور أعضائها للتصميم الأصلي لهذه الواجهة.

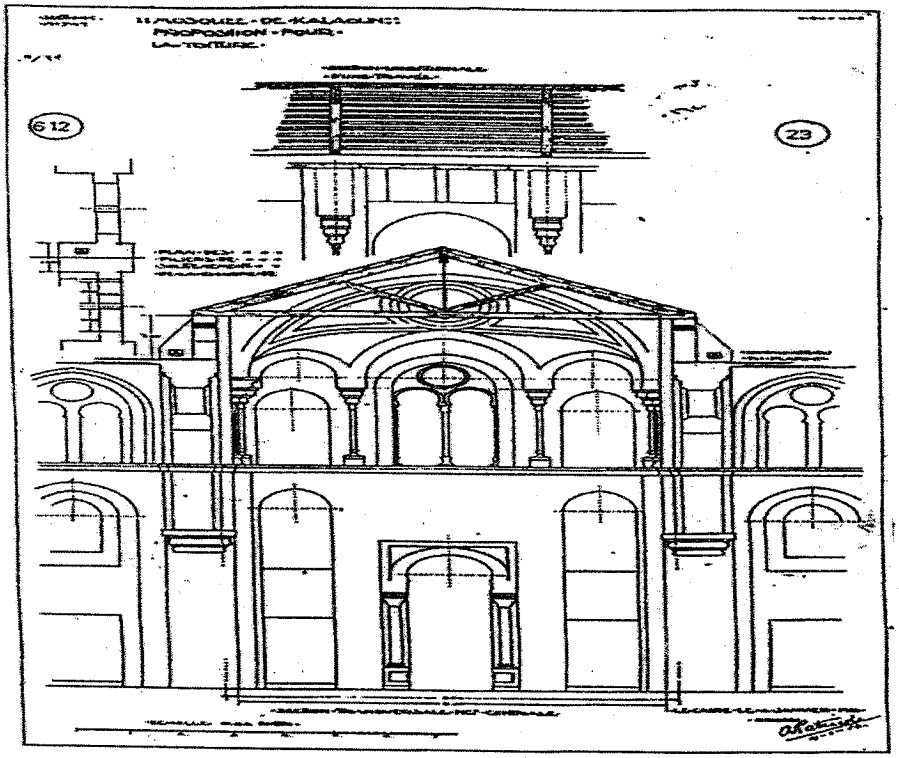

شكل (٢٨): اقتراح قدمه المعماري الإيطالي روسي لسقف الرواق الأوسط لإيوان القبلة، لاحظ افتراضه الفرق الصغير بين منسوب سقف الرواق الأوسط والرواق الجانبي، مع اقتراحه علو منتصف صدر الرواق الأوسط لإيوان القبلة، وتحقيقه ذلك من خلال سقف جمالوني خشبي.

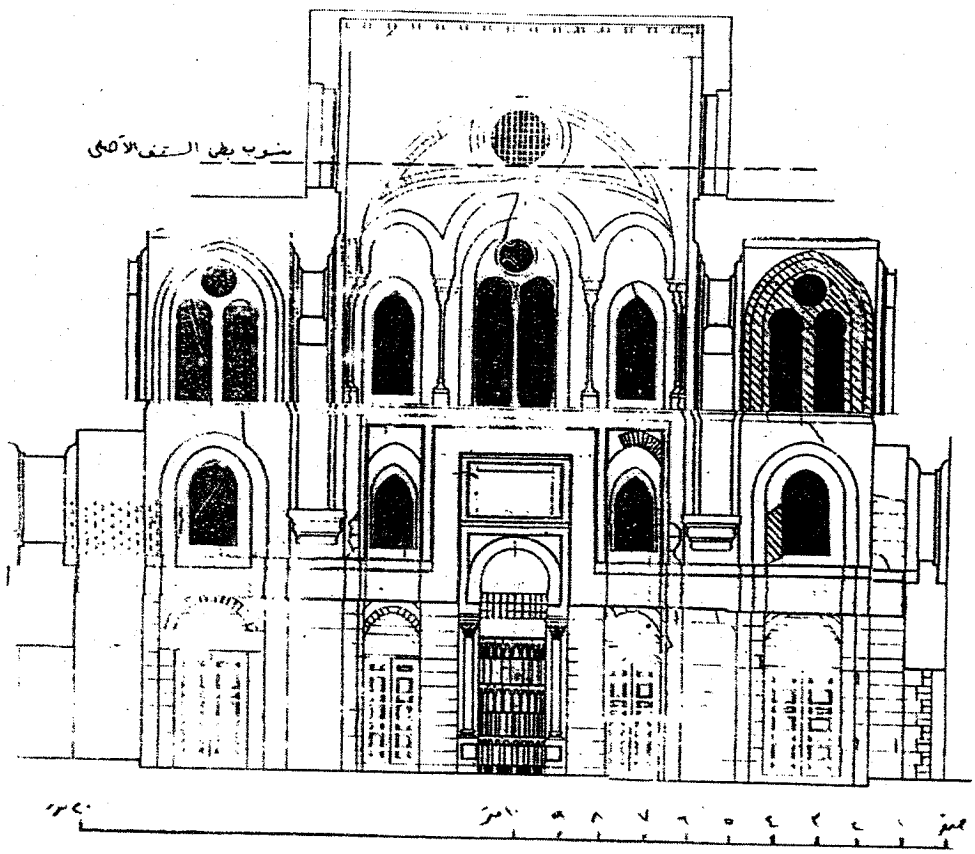

شكل (٢٩): تصور للمنسوب الأصلي لسقف الرواق الأوسط لإيوان القبلة، موقعاً على قطاع في الإيوان (من رفع ورسم قسم ترميم الآثار، بالإدارة العامة للاستشارات، شركة المقاولون العرب).

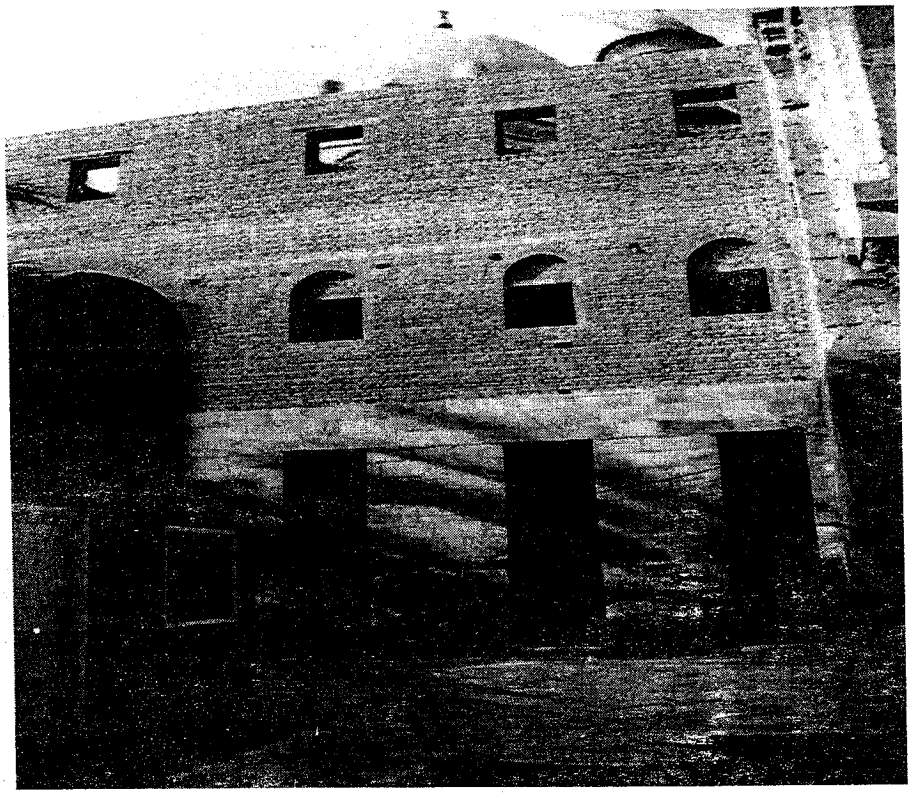

شكل (٣٠): الصفّة والخلاوي في الجانب الشمالي الشرقي من الصحن، من إنشاء لجنة حفظ الآثار العربية.

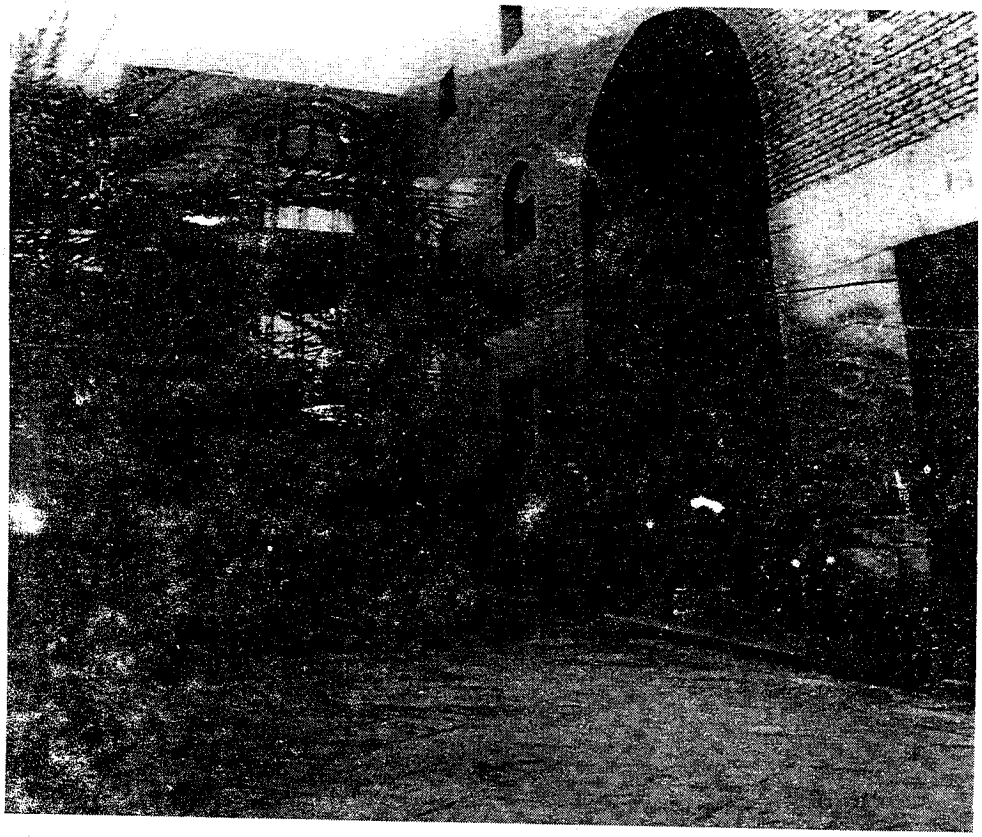

شكل (٣١): صورة حديثة للصفة والخلاوي في الجانب الشمالي الشرقي من الصحن، من إنشاء لجنة حفظ الآثار العربية.

شكل (٣٢): صورة قديمة من أرشيف المجلس الأعلى للآثار، الصفة والخلاوي في الجانب الشمالي الشرقي من الصحن كما وجدتهم لجنة حفظ الآثار العربية قبل الترميم.

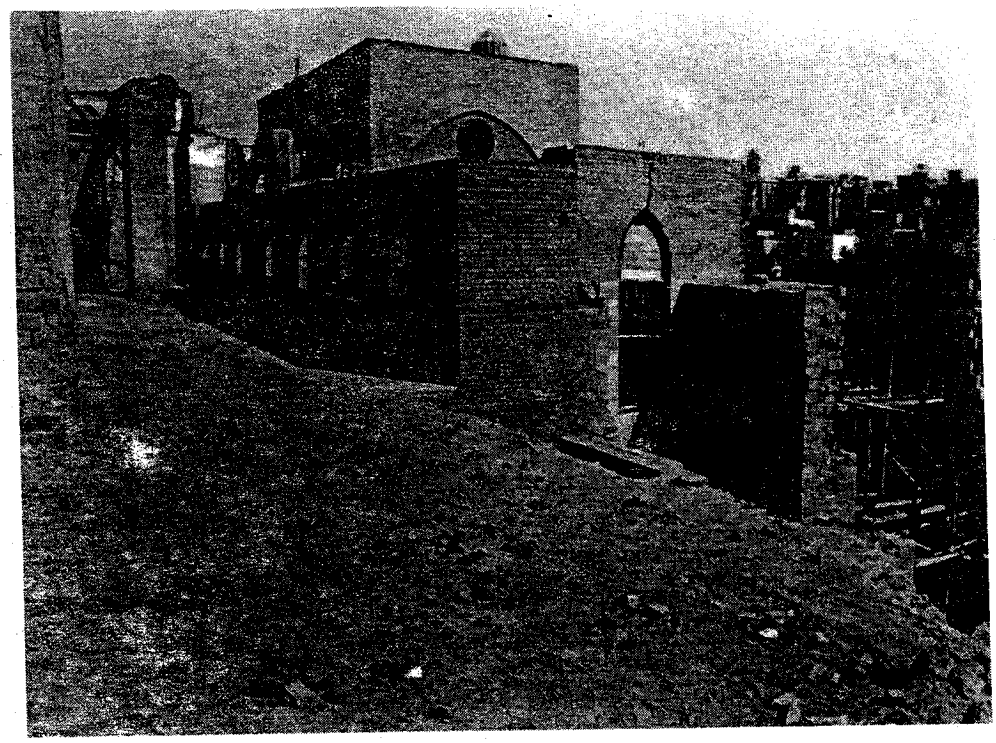

شكل (٣٣): صورة حديثة للممر بالدور العلوي فوق الصفة والخلاوي في الجانب الشمالي الشرقي من الصحن، كما أنشأهم لجنة حفظ الآثار العربية.

شكل (٣٤): علاقة الدخلات التي أبقى عليها عبد الرحمن كتخدا مع تعديلاته للجانب الجنوبي الغربي من الصحن، لاحظ التناسق بينها وبين الفتحات على نفس المنسوب بواجهة إيوان القبلة.